أصول المعارضة السياسية

في الإسلام

عبود العسكري

أصول المعارضة السياسية في الإسلام
عبود العسكري
الطبعة الأولى ١٩٩٧، ١٠٠٠ نسخة

التنضيد والإخراج الفني: بنان قسطنطين

دار النمير للنشر والتوزيع
سورية – دمشق – ✉ ٥١٧٥ – ☎ ٢٢٢٦٢٠٧

دار معد للطباعة والنشروالتوزيع
سورية – دمشق – ✉ ١٠٨٧٧ – ☎ ٢١١٧٦٦٥

المقدمة

إن العلاقة بين السلطة والمعرفة - بكل أشكالها - قديمة بدأت مع فجر التاريخ عندما تشكل الأفراد في جماعات بدائية أولية بسيطة، فكان لها زعيم يتولى أمرها، ويعاونه رجل آخر يبرر لهذا الكبير في قومه، تصرفاته، ويسبغ عليها صفة القداسة حيناً، والتأليه حيناً آخر، تلك كانت وظيفة صاحب المعرفة في المجتمع البدائي، ثم تطورت هذه الوظيفة المعرفية السياسية عبر الزمن، حتى صارت صناعة لها أصولها وتقاليدها، وعلم له مدارسه ومراتبه وفنونه.

والحاكم - مهما كان شكله - يحاول أن يجمع بين القوة والمعرفة، ومن النادر اجتماعهما في شخص واحد، إلا في حال الرسول الملك، والرسول القائد للدولة دينياً وسياسياً، وفي الطرف الآخر ظهر خلال التاريخ الملك المتأله الذي يدعي المعرفة والربوبية.

إن السلطة في حاجة مستمرة إلى الفئة المتخصصة، المثقفة، العالمة، لتسيير أعمالها، وتنفيذ برامجها، وفرض سلطانها، وتدعيم أركانها، واستمرار واستقرار وجودها، فالحاكم يعرف أن لا سلطة سياسية له، ولا مشروعية لحكمه، ولا إخضاع للمجتمع - حتى لو كان المجتمع طوطمياً بدائياً - بغير امتلاكه للسلطة المعرفية المتمثلة في: المثقف، العالم التكنولوجي، الفقيه الديني، وهؤلاء يتعامل معهم ليس كأفراد تحت ظل حكمه، بل كممثلين لقطاعات شعبية واسعة، يختارهم، أو يصنعهم حسب المواصفات التي تخدمه، ومن لاتنطبق عليه مواصفات السلطة من رجال المعرفة والعلم، فإنه يُبْعَد، أو يبتعد من تلقاء نفسه طلباً للسلامة والأمن الشخصي، وإلا فالسجن والإبعاد والتهميش الفكري والاجتماعي هما مصيره.

وكلما كانت بطانة الحاكم، عالمة، مخلصة، واعية، رافعة مصلحة الوطن شعاراً

وهدفاً دائماً تسعى لتحقيقه، كان قرار الحاكم، فاعلاً، ومفيداً، وسديداً ومحققاً لمصالح الجماعة حاضراً ومستقبلاً، لأن حكمة القائد وعقلانيته تظهر في استشارته لأهل العلم والاختصاص، والاستئناس برأيهم، وخبرتهم.

وهنا يثار التساؤل الهام عن علاقة الفقهاء بالسلطان، وعن شكل هذه العلاقة، وحدودها، ومواصفات أطرافها وغاياتهم..؟

إن هذه العلاقة مسألة جوهرية لايمكن غض الطرف عنها، ونحن في زمن عربي اسلامي متدهور من سيء إلى أسوأ، نحو نهاية لايُعرف لها قرار، ومن صور هذا التدهور، المعارضة المسلحة للحاكم، وكأننا أمام حالة سياسية، واجتماعية، وفكرية، لاتعرف الوسطية، ولا علاقة لها بسنن الآفاق والأنفس. فإما أن تكون المعارضة للحاكم دموية عنيفة تثير القلق والفزع، وتضحي بالأنفس دون اعتبار لعاقبة الأمر، وإما أن تكون منسحبة نهائياً من ساحة الفعل الاجتماعي، وكأن قضايا المجتمع لاأهمية لها، وهنا لايصح عليها إطلاق اسم المعارضة أصلاً، بينما هناك من أكل خبز السلطان وضرب بسيفه تنفيذاً لمصالحه الشخصية.

إن عدم مَدِّ الجسور مع الحاكم - مهما كان شكله - من قبل أصحاب المعرفة وأهل الخبرة، من أجل الصالح العام للأمة، هو الذي جعل الساحة حول الحاكم خالية لفقهاء السوء والحاشية لايهمها إلا مصالحها ومكاسبها، لأن تواصل المخلصين من أهل المعرفة والعلم مع الحاكم، هو الذي يحقق استقرار الجماعة، وامكانية اختراق حاشية السوء، التي ابتلي بها أغلب الحكام، ومن خلال هذا التواصل يصل الحاكم إلى شعبه بصورته الحقيقية، وتصل هموم ومشاكل الشعب إلى حاكمه، بدون تشويه أو تزوير.

إن الموضوع الجدير بالاهتمام في التجربة السياسية الاسلامية، هو تلك الجدلية بين النظرية السياسية التي تقول بوحدة الشريعة، وبين النهج السياسي العملي، فمن الواضح أن الواقع لا يماشي النظرية السياسية - إذا وجدت - في كثير من الأحوال، بل إن الواقع هو الذي يترك الأثر الأعمق في النظرية ذاتها، لذا جاءت النظرية السياسية عند المسلمين تابعة للواقع ومبررة له، فكانت نظريات سياسية مثالية بعيدة عن الواقع المعاش

في الساحة السياسية العملية، وهذا مايبرر ظهور محاولات التوازن والتناسق والتنازلات التصالحية لإنقاذ واستقرار الجماعة مُوَحَدَةً، حتى لو كانت تحت ظل حاكم ظالم ومتغلب!!

وتزداد حالياً أهمية استقرار الجماعة، ووحدتها، نتيجة للتحديات الحضارية، والتمزق الحاصل في كيان الأمة، ومعاناة بعض أجزاء هذا الكيان من أمراض اجتماعية وسياسية تمثلت في ظهور التطرف الديني من جهة، وطريقة رد الحكام على هذه الحركات من جهة ثانية، فغاب الحوار، وساد التكفير المتبادل والتصفية الجسدية بين الطرفين، ورفع الاثنان شعار الخلاص من الآخر، بل إبادته وتدميره، هو في صالح الجماعة، وأمنها، واستقرارها، لأن هذا الآخر خارج على تقاليد ومعتقدات الجماعة.

لقد اعتمد الطرفان - الحكومات والمعارضة المسلحة - على آراء فقهية لتبرير ممارساتهم في الساحة السياسية، وكل طرف لديه من الأسس النظرية ما يؤيد ممارساته العملية، وهنا يبرز السؤال الهام والمصيري على مستوى الفرد والجماعة وهو: هل نستطيع صياغة شكل للمعارضة السياسية للحاكم في الاسلام؟ على أن تكون هذه الصيغة منسجمة مع مبادئ وأصول الاسلام معتبرين أن ظاهرة التطرف الديني هي صورة مشوهة لعلاقة الفقهاء بالسلطان، وتحتاج هذه العلاقة إلى رسم حدودها، ووضع ضوابطها، باعتبارها أحد أسباب العنف الممارس في أكثر من بقعة اسلامية.

وبعد: أتمنى أن أكون قد حققت أحد المسائل السبعة التي تحدث عنها شمس الدين البابلي عندما قال: «إن على أي مُؤَلِفٍ جديد أن يعالج أحداً من المسائل السبعة التالية: أن يبدع شيئاً جديداً، أو يوضح أمراً غامضاً، أو يختزل عملاً مسهباً، أو يرتب دراسة مشوشة، أو يجمع شتات بحث مبعثر، أو يصحح دراسة خاطئة..».

ولقد سبقنا الثعالبي في بيان عدم إمكانية الحصول على كتاب كامل من صنع البشر، عندما قال في يتيمة الدهر: «.. وكلما أعرته على الأيام بصري وأعدت فيه نظري تبينت مصداق ماقرأته في بعض الكتب: إن أول مايبدو من ضعف ابن آدم، أنه لايكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه..».

لذا أرجو من كل قارئ لهذا الكتاب أن يزودني برأيه، مؤيداً، أو معارضاً للأفكار التي وردت، فيدلني على مواقع الزلل، ومخاطر الطريق، أملاً في تعميق الصواب وتعميمه.

وختاماً أسأل الله العفو والمغفرة، وأن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه ومحاولة في إضاءة جانب من مشكلة التطرف الديني، والله من وراء القصد.

الرقة

في يوم الجمعة ٢/محرم/١٤١٨

٩/آيار/١٩٩٧

عبود العسكري

سوريا – الرقة – ص.ب ١١٩

الفصل الأول

«سمات دعوة الأنبياء والرسل في القرآن الكريم»

مبحث تمهيدي

المبحث الأول: الدعوة إلى توحيد الله

المبحث الثاني: البلاغ المبين

المبحث الثالث: الصبر والحلم

المبحث الرابع: قواسم مشتركة في دعوة الرسل

مبحث تمهيدي

تمثل أحداث قصص القرآن قطاعات متكاملة من حياة المجتمعات البائدة وتبين مناشطها المتنوعة، ومع أن قصص الأنبياء أبرز ما في القرآن من تاريخ – وللتاريخ أهميته في حياة الأمم العاقلة – إلا أن المحاور وزوايا الرؤية قد تعددت فيها، فبرزت إلى جانب الأنبياء شخوص قاوموا الحق وحاربوه أمثال: فرعون، الملك الذي حاج إبراهيم، أبو لهب،.. الخ، وشخوص آخرون قاموا بأدوار إيجابية في تأييدهم للأنبياء والرسل منهم: مؤمن آل فرعون، السحرة، أبو بكر، بلال.. الخ.

أما المؤيدون للرسالة عبر التاريخ فهم على الأغلب من الفقراء والمساكين والعبيد، ولا يخلو الأمر من وجود مؤيدين من الطبقات الاجتماعية العليا في صف الرسول، وضمن صحابته التي صهرتهم الدعوة الجديدة، لتخلق منهم طبقة المبدأ، والعقيدة، فهما النسب الجديد لهذه الجماعة، ولهما الولاء، دون العشيرة والأهل.

لقد عانى الأنبياء والرسل كثيراً من جفاء ذوي القربى، وعداوتهم لهم. فأحياناً كان العدو الابن، كإبن نوح ﷺ، وكانت العدو الزوج، كزوج لوط ﷺ، وكان العدو الأب، كأبي إبراهيم ﷺ، وأحياناً أخرى كان العدو العم، وابن العشيرة، ويلاحظ من هذه المفارقة بين المؤيدين، والناقمين، أن النسب ليس ضرورياً وليس هاماً في الدعوات والرسالات السماوية في صفوف المؤيدين للرسالة، التي جاءت لتخلص الإنسان من عبادة أخيه الإنسان، والدعوة إلى

المساواة والعدل بين الجميع وذلك بعبادتهم لإله واحد.

إن المستكبرين الذين عارضوا الرسل، لم يكن موقفهم نتيجة لقناعتهم بكذب وبطلان ما يدعو إليه الرسول، بل لخطر هذه الدعوة عليهم، لأنها تسعى لإزالة الاستكبار والتأله البشري، والاستعباد، وبهذا يخسرون مراكزهم، وامتيازاتهم اللاشرعية في المجتمع، لذا لم يدخروا جهداً أو وسيلة في سبيل إنهاء دعوة الرسول بأي صيغة كانت، سواء بالقتل أم بالتهجير فإذا فشلوا بالترهيب، فأنهم يطمعون أن يترك الرسول دعوته بترغيبه بالمال والجاه، لأنهم يصورون الرسول لشعوبهم المغلوبة بأنه طالب ملك ومال! وما دعوته لعبادة الله، وترك الأصنام، إلا طمعاً في رئاسة وجاه!. إلا أن رد الرسل وسلوكهم ينفي هذا الاتهام.

ونجد في قصص الأنبياء التنوع الموضوعي، من أمثلته: الأساس العقيدي في قصة إبراهيم عليه السلام، بدعوته إلى توحيد الله، وهذا الأساس مشترك في دعوات الأنبياء والرسل جميعاً، والأساس الاقتصادي في قصة شعيب مع قومه، والصناعي في قصة داود، والقضائي في قصة سليمان، والتخطيطي في قصة يوسف، والتبشير والإنذار في قصة يحيى، والأخلاقي في قصة لوط، والروحي في قصة عيسى رداً على ايغال اليهود وقتئذ في المادية وحرفية النصوص والرسوم.

ثم تأتي الجهود المتكاملة في تكوين الفرد والأسرة والمجتمع، مكملة لمسيرة التوحيد، مستفيدة من تراث النبوات السابقة، في سبيل حياة كلها عدل ومساواة، ضمن رسالة سماوية خاتمة لوحي السماء، تجلت في رسالة الإسلام، الذي جاء حجر الزاوية، وبه تم البناء الإنساني في أكمل صورة يمكن أن يحققها الإنسان على هذه الأرض.

لكن أحداث التاريخ التي ذكرت في القرآن جاءت مثالاً لا حصراً، لأن هناك تجارب بشرية، مع أنبياء، لم يرد ذكرهم في القرآن، قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا

رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك..﴾.[1]

لكن الصبر في مرحلة الدعوة يبقى هامشياً، بالنسبة لضرورة الصبر والحلم كأخلاق عامة في مرحلة بناء الدولة، فقد لاقى موسى عليه السلام من عنت ومادية بني إسرائيل الشيء الكثير، فمن طلبهم للمعجزات، إلى عبادتهم للعجل، ومن اتهامهم للرسول بأنه لم يغير من حالهم شيئاً، فهم ليسوا أحسن حالاً عما كانوا عليه في مرحلة الاستعباد، إلى عدم تلبيتهم لدعوة موسى عليه السلام لدخول فلسطين، متذرعين بوجود قوم جبارين، وفي هذا غاية الذل والجبن.

قال تعالى: ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ۞ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها..﴾.[3]

لقد نفذ صبر موسى، بعد كل الجهود التي بذلها من أجل بناء جماعة ذات أخلاق تتسم بالكرامة والحرية، ويبدو أن أخلاق بني إسرائيل لازالت مطبوعة بطابع الاضطهاد والعبودية التي عاشوها في مرحلة الرق والاستعباد على يدي فرعون.

أما خلق الحلم الذي تحلى به الأنبياء والرسل جميعاً فقد تجلى في الأناة والتثبيت في الأمر، وما يلزم ذلك من ضبط للنفس وكظم للغيظ، وعفو عن السيئة، وصفح عن الخطأ.. الخ.

لقد جاءت تجارب الأنبياء والرسل في علاقتهم مع الملوك ضمن نماذج قليلة

---

[1] سورة غافر: ٧٨.

[2] سورة الأعراف: ١٢٩.

[3] سورة المائدة: ٢١-٢٢.

المحكام تبين مشاهد من الحكم، فكانت تجربة إبراهيم عليه السلام مع ملك قومه، وتجربة موسى عليه السلام مع فرعون، وهما التجربتان الأكثر وروداً في القرآن الكريم، بالنسبة لغيرهم من الأنبياء والرسل. فقد غطت علاقة موسى عليه السلام مع فرعون مساحات واسعة من النص القرآني، «فموسى أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن، لأنه ذكر (١٣٦) مرة، ثم يليه إبراهيم عليه السلام فقد ذكر (٦٩) مرة، أما نوح عليه السلام فقد ذكر (٤٣) مرة، ثم يوسف ولوط عليهما السلام فقد ذكرا (٢٧) مرة، ثم يأتي ذكر عيسى عليه السلام (٢٥) مرة، وسليمان عليه السلام يذكر (١٧) مرة، أما خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، فقد ذكر (٤ مرات)».[(١)]

فمن الأنبياء من كان ملكاً مثل داود وسليمان عليهما السلام، ومنهم من كان ربيب ملك كموسى عليه السلام، وأكثرهم كانوا من عامة الناس وأشرفهم حسبا.

باستعراض دعوات الأنبياء في القرآن الكريم نجد أن أغلبهم لم يتجاوزوا مرحلة الدعوة، إلى مرحلة إقامة الدولة على أسس الدعوة، إلا دعوة محمد عليه الصلاة والسلام، التي كانت المثال الأوحد لانتقال الدعوة إلى إقامة الدولة في حياة الرسول، فكانت دولة العقيدة.

لكن ما هو الأسلوب الذي اتبعه الأنبياء والرسل في دعواتهم لأقوامهم؟ تميزت دعوة الأنبياء بسمات عامة، نجدها واضحة باستعراض بعض الآيات القرآنية التي تصف التجربة النبوية على مدار التاريخ الإنساني وسنرى في المباحث الآتية سمات دعوة الأنبياء.

---

(١) عبد الباقي، محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (بيروت: دار احياء التراث العربي، [د.ت])، صفحات متفرقة.

المبحث الأول

الدعوة إلى توحيد الله

لعل من أهم سمات دعوة الأنبياء، هي دعوة أقوامهم إلى توحيد الله، وعبادته، وتحطيم الأصنام، وعصيان المستكبرين المتألهين من البشر، ولهذا نشأ الصراع واشتد، بين الرسول، وبين الطغاة الظالمين، الذين هددت وزلزلت مراكزهم، وتعرضت مصالحهم للخطر. وكي يثبت الأنبياء والرسل صحة دعوتهم التوحيدية لجأوا إلى عدة براهين منها:

١- بطلان تعدد الآلهة: لقد كان الإنسان القديم يعبد-الظواهر الطبيعية فيجعل الشمس إلهاً، وكذلك القمر، والنجوم، والرياح، والأنهار.. الخ. وذلك لعجزه عن تفسير حدوث هذه الظواهر التي كانت تلحق به ضرراً مادياً، وتثير فيه فزعاً نفسياً، مما جعله يعبدها، ويقدم لها القرابين البشرية، عسى أن ترحمه.

قال تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ۞ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ۞ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ۞ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ۞ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾.[1]

---

[1] سورة الانعام: الآيات ٧٥-٧٩.

«ففي عصر إبراهيم وجدت عبادة القمر في مدينة (اور) بلد إبراهيم وكان يطلق على القمر اسم (نانار)، كما عبدت الشمس وأطلق عليها (شماس) كما وجدت عبادة الكواكب وأشهرها كوكب الزهرة أطلق عليها (عشتار) وكوكب المريخ (مردوخ)».[1]

٢- لقد كان لتعدد الآلهة شكل آخر يتمثل في عبادة الأصنام، التي توارثها الأبناء عن الآباء، مقلدين ما وجدوا عليه آبائهم، معطلين عقولهم عن الوصول إلى عبادة الله الواحد الأحد.

قال تعالى: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ۞ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ۞ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ۞ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ۞ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ۞ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾.[2]

لعل من أهم ميزات دعوة الأنبياء والرسل لأقوامهم، كي يوحدوا الله، حضهم على إعمال العقل والفكر، وترك التقليد للآباء، وبذلك فهم يأملون من جيل الشباب استيعاب دعوتهم، أكثر مما يأملون قبول دعوتهم من قبل كبار السن، لأن هؤلاء من الصعوبة جداً أن يتراجعوا عن معتقداتهم التي أعطتهم شيئاً من الاستقرار النفسي على الرغم من عدم صوابيتها أحياناً، ودعوة الأنبياء والرسل هي من أجل المستقبل القريب والبعيد معاً.

وقوم هود عليه السلام اتهموا نبيهم عندما دعاهم إلى التوحيد، بأنه مجنون أصابته بعض آلهتهم بسوء.

قال تعالى: ﴿قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما

---

(١) طبارة، عفيف عبد الفتاح، مع الأنبياء في القرآن، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، [د.ت]) ص:١١٨.

(٢) سورة الأنبياء: ٥١-٥٦.

نحن لك بمؤمنين ۞ إن نقول إلا اعتراك بعض إلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون﴾.[1]

أما قوم فرعون فدعوا إلى مكافحة دعوة موسى عليه السلام المفسدة في الأرض كما قالوا، لأنها لا تقول بآلهة فرعون ولأنها ترى أن هناك إلهاً واحداً. قال تعالى: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾.[2]

إلا أن الآخر الذي يقف في وجه دعوة الرسول لا يقبل إلا بإبادة صاحب الدعوة الموحدة، وبذلك يحاول الخلاص منه، لأنه لم يستطع أن يكسب الجولة مع الرسول، بالحجة والحوار، كيف لا؟ وهذه الدعوة تهدد مكانته ومركزه الذي وصل في بعض الأحيان إلى درجة التأليه.

قال تعالى: ﴿قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ۞ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ۞ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾.[3]

ويضرب القرآن بفرعون مثالاً على ادعاء بعض الملوك الألوهية من خلال حواره مع موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قال فرعون ومارب العالمين ۞ قال رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين ۞ قال لمن حوله ألا تستمعون ۞ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ۞ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ۞ قال رب المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون ۞ قال لئن اتخذت إلها غيري

---

(1) سورة هود: ٥٣، ٥٤.

(2) سورة الأعراف: ١٢٧.

(3) سورة الأنبياء: ٦٦-٦٨.

لأجعلنك من المسجونين﴾.[1]

وفي تجربة مماثلة بين رسول وملك أدعى أنه يحيي ويميت، يتكرر ظهور الملك المتأله في التاريخ البشري.

قال تعالى: ﴿الم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين﴾.[2]

لقد استمرت دعوة التوحيد عبر التاريخ الإنساني بدءاً من آدم عليه السلام حتى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ في سلسلة متصلة الحلقات، محاولة إبعاد البشر عن الشرك، وعبادة آلهة متعددة من الكواكب والأصنام والأشخاص.

ومن هنا اعتبر الإسلام كغيره من الديانات السماوية أن الشرك هو عدوه الأول والأخير، لذا جاء محارباً للشرك على كافة مستوياته، لما لهذا الاعتقاد المنحرف من خطر على إنسانية الإنسان، وعلاقته بربه، وبأفراد جنسه.

قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾.[3]

---

(1) سورة الشعراء: ٢٣-٢٩.

(2) سورة البقرة: ٢٥٨.

(3) سورة النساء: ١١٦.

المبحث الثاني

البلاغ المبين

لقد جرت سنة الله في خلقه أن لا يعاقب أحداً إلا بعد أن يبعث فيهم رسولاً. قال تعالى: ﴿.. وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾.[1]

وعندما يرسل الله الرسل إلى البشر يقطع على المشركين طريق العذر. فلا حجة لهم يتذرعون بها بأن الله لم يوضح لهم طريق الهدى الذي يسيرون عليه. قال تعالى: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾.[2] أما الجماعة البشرية التي لم يصل إليها البلاغ فهي غير مكلفة بتعاليم الدين، وبذلك ارتبط التكليف بالبلاغ المبين، لكن من يقوم بمهمة البلاغ المبين؟

إن الرسل هم من اختارهم الله واصطفاهم لهذه المهمة الجليلة والخطيرة، ويقع على عاتقهم عبء هذه المسؤولية، فهم مأمورون من الله سبحانه وتعالى بتبليغ رسالاته، وتوعد الرحمن من يكتم الحق، ويقصر في أداء واجبه من الرسل، على الرغم من كل الصعوبات والمحن التي تعرضوا لها، لأن طريق إبلاغ الرسالات محفوف بالمخاطر.

---

[1] سورة الاسراء: ١٥.

[2] سورة النساء: ١٦٥.

قال تعالى: ﴿... وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾.[1]

ولا يكون البلاغ مبينا، إلا إذا اتصف بوضوح المعنى، وقوة الحجة ومنطقية الفكرة. أما وضوح المعنى فيتجلى في بعث الله سبحانه وتعالى للأنبياء والرسل كل بلسان قومه حتى يفقهوا قوله، من خلال الحوار اللفظي بين الرسول وقومه، بحيث لا تكون هناك ذريعة لهم بأنهم لم يفهموا كلام الرسول المتحدث إليهم بلغة أخرى، وهذا لو تم لمنع الاتصال بين الطرفين لصعوبته ولتعذر إمكانية التواصل.

قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾.[2]

مادامت مهمة الرسول محصورة في البلاغ المبين وعدم كتمان الحق، فلا لوم عليه إن لم يستجيبوا له بعد أن جعل خطابه إليهم واضحاً بيناً، ولم يكتم الحق مهما لاقى من صعوبات في سبيل نشر العقيدة بأوضح صورها، وتاريخ الأنبياء والرسل حافل بصور شتى من هذا الأسلوب الدعوي فنتائج الدعوة من حيث الكم الاجتماعي ربما كانت معدومة، أو قليلة جداً، نظراً لزمن الدعوة واستمرار الرسول بمهمة التبليغ، ومع ذلك لابد من استمرار مهمة البلاغ المبين من قبل الرسل، فيأتي بعض الأنبياء والرسل ومعهم نفر قليل ممن آمن برسالتهم ودعوتهم إلى الله.

قال تعالى: ﴿.. فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾.[3]

لم يدخر الأنبياء جهداً في بيان دعوتهم بشكل واضح ومفهوم، إلا أن أقوامهم أصروا على كفرهم حتى أن قوم نوح عليه السلام، كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لايسمعوا كلام النبي الداعي إلى توحيد الله، وكانوا يوصون أبناءهم قبل موتهم بعدم إتباع نوح عليه السلام الذي دعاهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، ولمدة

---

[1] سورة العنكبوت: ١٨.

[2] سورة إبراهيم: ٤.

[3] سورة المائدة: ٩٢.

(٩٥٠) عاماً. فرغم العناد والرفض والمجابهة بالقتل لم يلجأ إلى قتالهم، وإنما لجأ إلى الصبر، حتى ولو اتفقوا على قتله، لقد استنفذ الفرص معهم تماماً، لذا كانت دعوته عليهم بالدمار.

قال تعالى: ﴿قال ربي إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ۞ فلم يزدهم دعاءي إلا فرارا ۞ وأني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ۞ ثم إني دعوتهم جهاراً ۞ ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾.[١]

وقال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولاتنظرون﴾.[٢]

إن أكثر ما يجعل الدعوات وضوحاً، هو اعتمادها الحوار العقلي الذي يصل بالإنسان المفكر إلى الإيمان بوحدانية الله، عقلاً وتدبراً، تفكيراً ناقداً، لا تقليداً لمعتقدات الآباء، لأن ليس كل ما عليه الآباء يكون بالضرورة سليماً ومنطقياً.

وعندما يتجاوز الإنسان الأصنام الفكرية - بعض معتقدات الآباء الخاطئة على كافة المستويات - يستطيع الوصول إلى الحقيقة، وهذا التعبيد للطريق بشكل شخصي يجعل الإنسان في مأمن من انحرافات الطريق ومفاجآته وبهذا طالبنا الله في مجال العقيدة.

قال تعالى: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ۞ وكذلك ماأرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ۞ قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم

---

[١] سورة نوح: ٥-٩.

[٢] سورة يونس: ٧١.

قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾.[1]

هكذا نجد في تصرف الطبقة المترفة المعادي لدعوة الأنبياء والرسل دليل على أن من يمثل هذه الطبقة لايهمه الخلاص الاجتماعي، بل همه الاستمرار والاستقرار في الوضع الراهن الذي يحقق مصالح هذه الطبقة ويحافظ على امتيازاتها.

لقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بأنه حجة في بلاغه المبين. قال تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه....﴾.[2]

لقد بدأ إبراهيم دعوته بأبيه صانع أصنام القوم، ثم بقومه، مبيناً زيف عبادتهم، وتابع دعوته بعمل حسي عندما حطم الأصنام، متهماً كبيرهم وفق حجة عقلية غاية في الإدانة لعبادة قومه وآلهتهم التي لم تستطع الدفاع عن نفسها. وبهذا العمل - تحطيم الأصنام - انتشر خبر إبراهيم في المملكة، مما جعل المواجهة مع الملك شيئاً لابد منه. قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ۞ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ۞ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لاأحب الآفلين ۞ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكون من القوم الظالمين ۞ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون﴾.[3]

وقال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم

[1] سورة الزخرف: ٢٢-٢٤.

[2] سورة الانعام: ٨٣.

[3] سورة الانعام: ٧٤-٧٨.

الظالمين﴾.[1]

من خلال هذه الآيات نجد أن إبراهيم عليه السلام اعتمد في دعوته على التسلسل في النفي حتى توصل إلى اليقين، وذلك احتجاجاً لدينه، وتزييفاً لدين قومه أتى بالحجج على سبيل التدرج في الإلزام، لأن القوم كانوا يعبدون الأصنام ينحتونها على أسماء الكواكب والشمس والقمر ونحوها،فأراد أن يبين لهم أن الكواكب والشمس والقمر لاتصلح لأن تكون آلهة. ثم تتصاعد مستويات الحوار لتصل إلى أعلى مستوى سياسي في البلاد، وذلك مع الملك مباشرة، فكان الحوار الوارد ذكره في الآيات السالفة. ومن خلال الحوار استطاع إبراهيم عليه السلام أن يجر محاوره إلى نقطة لا عودة فيها، وقد أغلق عليه جميع الأبواب التي يمكن أن يفتحها.

فكانت حجج إبراهيم عليه السلام منطقية عقلية يسهل تصديقها، بينما كان الملك لا يملك إلا القوة والبطش بمعارضيه، مما جعله يحركهما عندما خسر في ساحة الحوار العقلي مع خصمه ابراهيم عليه السلام، فأمر بإحراقه كي يتخلص منه، ويستقر له الحكم.

قال تعالى: ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾.[2]

وتبدو أهمية البلاغ المبين في تبليغ الدعوة في ماطلبه موسى عليه السلام من الله تعالى أن يشدد أزره بأخيه هارون لأنه أفصح منه لسانا، إذ كان يعاني من اعاقة في النطق، والبلاغ المبين يحتاج إلى شرح وتوضيح وحوار من أجل بيان طبيعة الرسالة، والعقيدة الجديدة. قال تعالى: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾.[3]

فالرسول مطالب باتباع أسلوب البلاغ المبين بالقول اللين والحكمة والموعظة

---

(1) سورة البقرة: ٢٥٨.

(2) سورة الأنبياء: ٦٨.

(3) سورة القصص: ٣٤.

الحسنة حتى لو كان الآخر رمز الظلم والاستبداد في التاريخ الانساني.

قال تعالى: ﴿إذهبا إلى فرعون إنه طغى ۞ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾.[1]

وقال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾.[2]

لقد أثبتت التجارب الإنسانية عبر التاريخ أن الذي يرفع شعار الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن من أجل نشر مبادئه وعقيدته تكون العاقبة في صالحه.

لم يترك الأنبياء والرسل طريقة، أو وسيلة، في سبيل أداء مهمتهم في دعوة أقوامهم إلا اتبعوها لكنهم لم يجنوا إلا التكذيب، والاعراض، والاهمال. إلا أن عاقبة الأمر كانت في صالح الرسول وجماعته. قال تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا..﴾.[3]

---

(1) سورة طه: ٤٣، ٤٤.

(2) سورة النحل: ١٢٥.

(3) سورة الانعام: ٣٤.

المبحث الثالث

الصبر والحلم

الصبر والحلم من الأخلاق الواجب توفرها بشكل عام عند كل إنسان، وبشكل خاص عند من يقومون بمهمة الدعوة من أنبياء ورسل، أو من المصلحين.

«... فالصبر قوة خلقية من قوى الارادة، تمكن الإنسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب، والمشقات، والآلام، وضبطهما عن الاندفاع بعوامل الضجر، والجزع، والسأم، والملل، والعجلة، والرعونة، والغضب، والبطش، والخوف، والطمع، والأهواء، والشهوات، والغرائز..».[1]

وعلى مثل هذا ربى رسول الله محمد ﷺ أصحابه في العهد المكي، ثم في العهد المدني، في مرحلة امتلاك القوة وبناء الدولة.

بالصبر وحده يتمكن الانسان بطمأنينة وثبات أن يضع الأشياء في مواضعها، ويتصرف وفق مقاييس عقلية هادئة، بغير إندفاع أو تهور، لأن عدم الصبر يدفع إلى التسرع والعجلة، فيضع الإنسان الأشياء في غير مواضعها، ويتصرف برعونة، فيخطىء في تحديد الزمان، ويسيء طريقة التنفيذ، فينقلب صاحب الحق، أو الساعي إلى الخير، إلى مخرب مفسد، ولو أعتصم بالصبر لسلم من كل ذلك. «فالصبر سلاح قوي يمكن صاحبه من إصلاح خصمه، أو الظفر به، وإنه أعظم

---

[1] الميداني، عبد الرحمن حبنكة، الأخلاق الاسلامية (بيروت: دار القلم [د.ت]، ج٢، ص١١٨.

خلق نفسي وضع موضع الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا».[1]

لعل من سمات دعوة الأنبياء والرسل الهامة هي الصبر والحلم، فقد لاقوا ألواناً شتى من الصعوبات في سبيل نشر الدعوة، فقد صبر نوح على إيذاء وسخرية قومه مدة طويلة امتدت (٩٥٠) عاماً، فلم يعرف اليأس أو القنوط.

ولما لم يستجيبوا له بعد استنفاذ الفرص جميعها اضطر إلى الدعاء عليهم بالعذاب، عسى أن يطهر الله الأرض من المفسدين من أجل بناء جماعة موحدة مؤمنة جديدة.

قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ۞ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾.[2]

أما ابراهيم عليه السلام فقد ضرب مثلاً رائعاً في الصبر إذ تعرض من أجل دعوته التوحيدية للقذف في النار لحرقه، فصبر وأنجاه الله منها، ثم كان الطرد من الوطن ومعه زوجه وابن أخيه لوط، ثم الاستقرار بواد غير ذي زرع، ومافيه من شظف العيش، وقساوته، إلا أنه نال نتيجة صبره احتباء الله واكرامه فصار أباً للأنبياء، وجعل الله في هذا المكان القاحل بيته الحرام.

فالصبر شعار الدعاة على مر الأيام، لأنهم لاينتظرون نتيجة عملهم في القريب العاجل، وقد عبر عن ذلك رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، عندما أصابه العذاب في الطائف، فكان أمله أن يخرج من أصلاب هؤلاء المشركين من يوحد الله وعلى هذا الخلق العظيم تربى الصحابة، فمن يصبر على تحمل الأذى، يستطيع أن ينتصر على العواطف، والأهواء، فلاتتحكم في تصرفاته، لأن اتباع الحق في كل شيء هو الأولى.

---

(1) م. س. ن. ج٢، ص٢٩٥.

(2) سورة العنكبوت: ١٤، ١٥.

قال تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولاتستعجل لهم كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾.(١)

---

(١) سورة الأحقاف: ٣٥.

المبحث الرابع

القواسم المشتركة في دعوة الرسل

يمكن ملاحظة الاستنتاجات التالية من خلال استعراض بعض قصص الرسل.

١- الدعوة إلى توحيد الله، وإبطال عبادة الكواكب والأوثان والأشخاص.

٢- اتباع أسلوب البلاغ المبين في الدعوة، فلم يكن لهم أي سلوك عنف مع خصومهم.

٣- لم يكن الأنبياء والرسل يسعون إلى مال أو جاه من وراء دعوتهم وكان سعيهم إلى خلاص الانسان من عبودية أخيه الانسان، وانقاذه مما لايضر ولاينفع من الأصنام، محتسبين أجرهم عند الله.

٤- لقد كان خصوم الأنبياء والرسل بشكل عام من المترفين، أصحاب المراكز الاجتماعية العليا، الذين هددت مصالحهم بدعوة الرسل إلى المساواة بين جميع الناس، غنيهم وفقيرهم، حاكمهم ومحكومهم، فلاطبقات، ولاامتيازات في ظل عقيدة التوحيد.

٥- إن أكثر اتباع الرسل من الفقراء والمستضعفين، لأن في دعوة الرسل، خلاصاً لهم من العبودية والذل والمهانة، وهذا لاينفي وجود أفراد من الطبقات الاجتماعية العليا آمنوا بالرسل من أجل دعوة التوحيد.

٦- بقيت أغلب دعوات الرسل في مرحلة الدعوة، إلا دعوتي محمد وموسى عليهما السلام فقد انتقلت من الدعوة إلى إقامة الدولة.

٧- الصبر والحلم هما شعار الأنبياء والرسل في دعواتهم.

٨- اعتمد الأنبياء في عرض دعوتهم على الحجة، والمنطق، والحوار بينما استعمل خصومهم، القوة، والبطش، والارهاب.

٩- إن دعوة الرسل والأنبياء هي دعوة للعقل والتفكير، ورفض التقليد المتمثل بأفكار الآباء الضالة كعبادة الأصنام والكواكب التي فيها إهانة للعقل الإنساني.

١٠- لقد عانى الأنبياء والرسل الطرد من الوطن، والقتل، والسجن، والإيذاء الجسدي، فما من رسول إلا وأصابه شيء من هذه الأشياء، لأنهم بلغوا الرسالة لأقوامهم.

١١- لعل دعوة الرسل كانت متجهة نحو المستقبل أكثر من اللحظة الراهنة لإنها عنيت بخطاب الشباب، وبأمل التوحيد للأجيال القادمة.

١٢- عند استنفاذ الفرص في دعوة القوم كان الأنبياء والرسل يدعون الله فينزل بأممهم الكافرة العقاب الإلهي، لانقطاع الأمل في هذه الأقوام، ولتطهير الأرض منها، إلا محمداً فكان يدعو لهم ويعتذر عنهم قائلاً: اللهم أهد قومي فإنهم لايعلمون.

الفصل الثاني

«دروس في الدعوة وأسس للدولة»

المبحث الأول: من الدعوة إلى الدولة
المبحث الثاني: أحاديث نبوية بين الحاكم والمحكوم
المبحث الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المبحث الأول

من الدعوة إلى الدولة

جاء محمد لقومه بدعوة قلبت حياتهم رأساً على عقب، لأنها لم تتناول معتقداتهم فقط، بل شملت حياتهم في جميع مظاهرها: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والدينية.

فكان لابد لهم من رد هذه الدعوة، وقهر صاحبها، ليرجع إلى الصف الذي خرج عنه، متراجعاً عن دعوته التي زلزلت كل ماهو جاهلي.

فقريش الآمنة العزيزة الجانب الغنية بتجارتها، حامية الكعبة، وصاحبة الرياسة في محيطها، لاشك إنها ستعادي من يريد لدينها تبديلا، ولنظامها تغييرا، ومحمد عليه الصلاة والسلام داعية توحيد الله، كغيره من الأنبياء والرسل، فلن ترضى بإله واحد عن آلهتها، وأصنامها الجاثمة حول البيت العتيق.

لم يكتف محمد بالدعوة إلى توحيد الله، وتحريم سيء ماكانوا يمارسون، بل دعا إلى مالايحبون، وإلى مايفقدهم امتيازاتهم وسيطرتهم. فقد دعا إلى حق المساواة وهم الذين قضوا أعمارهم في التفاخر بالأنساب والتمايز الطبقي، فما بال محمد ﷺ يخرج عليهم بالمساواة بين السادة والعبيد، وتطبيق العدالة الاجتماعية وإقامة دولة تعتمد على مايقدمه الفرد للجماعة بغض النظر عن أصله ونسبه.

لذا لم تستطع قريش صبراً على دعوة محمد ﷺ، فبدأت تمارس قوتها

وبطشها على محمد رسول الله وصحابته.

فقد روى عبد الله بن عمر قال: «بينما النبي ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جزور، فقذفه على ظهر النبي ﷺ، فلم يرفع رأسه فجاءت فاطمة رضي الله عنها، فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع ذلك».(١)

ومن أشكال المضايقة التي لاقاها رسول الله ﷺ من كفار قريش «أن بعضهم عمد إلى قبضة من التراب على رأسه وهو يسير في سكك مكة، وعاد إلى بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: يابنية لاتبكي، فإن الله مانع أباك».(٢)

لقد سفه رسول الله ﷺ أحلام قومه، وعاب عليهم دينهم، «فأحاطوا به يوما يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله: نعم أنا الذي أقول ذلك، فأخذ رجل منهم بمجمع ردائه.. فقام أبو بكر ﷺ عنه دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله..».(٣)

إن هذا الموقف له مثيل في كل تجارب الأنبياء والرسل مع أقوامهم، فهذا مؤمن آل فرعون يدافع عن موسى عليه السلام، في مجلس فرعون الذي عقده، لإنهاء دعوة موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وقال فرعون ذروني اقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ۞ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك

---

(١) رواه البخاري.

(٢) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك؛ السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعيد (بيروت: دار الجيل. [د.ت]) ج١، ص٢٥٩.

(٣) م. س. ن: ج١، ص٢٥٩.

كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لايهدي من هو مسرف كذاب﴾.[1]

لم ييأس رسول الله ﷺ، على الرغم من جهود قريش، وإيذائها له، لذلك اتجه إلى توسيع دائرة الدعوة خارج مكة، فكانت رحلة الطائف عسى أن يجد فيها من يؤمن بدعوته، فيكون نصيراً له، وعزاء عن قومه الكافرين.

لكن أهل الطائف لم يكونوا أحسن حالاً من جيرانهم أهل مكة، وخاصة أن هناك تحالفاً فيما بينهما. «فقد ضرب رسول الله ﷺ، بالحجارة من قبل السفهاء والأطفال، حتى أدمى وجهه الكريم، وإذ بملك الجبال يناديه قائلاً: يامحمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولايشرك به شيئاً».[2]

لقد كان رد رسول الله ﷺ على وحي السماء، غاية في الرحمة والصبر، وكظم الغيظ، والأمل بالمستقبل، وهو قادر على إيقاع الأذى بمن آذوه عن طريق وحي السماء.

لأن الغاية من دعوة الاسلام الذي جاء بها محمداً ﷺ ليس إنهاء الكفر، وإبادة أهله، وسيادة الاسلام بالإكراه على الآخرين. بل اصلاحهم وهدايتهم، ونشر العدل، وإزالة الظلم عن الناس كافة، بحيث يصبحون أحراراً فيما يعتقدون.

على الرغم مما أصابه في الطائف فرسول الله ﷺ يناجي ربه بهذا الدعاء «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي

---

[1] سورة غافر: ٢٦، ٢٧.

[2] ابن هشام. م. س: ج٢، ص٤٨.

أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، لاحول ولا قوة إلا بك».[1]

لقد توالت الآيات القرآنية في النزول (في العهد المكي) تثبيتاً لفؤاد النبي، وحاثة إياه، وصحابته، على مزيد من الصبر، وتحمل الأذى، ولهم فيما سبق من الأنبياء والرسل أسوة حسنة، لما عانوه من أقوامهم. فقديماً كذب الأنبياء، وقيل عنهم أنهم كهنة، وسحرة، ومجانين.. الخ.

وقال تعالى: ﴿ولقد كذبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا..﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك..﴾.[3]

هذا بعض مالاقاه رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام من قومه. فماذا أصاب أصحاب محمد من تعذيب بأيدي كفار قريش؟.

لقد أصاب أصحاب رسول الله ﷺ ألوان كثيرة من العذاب والاضطهاد، فمن الحرق والتعذيب في رمضاء مكة، إلى التعذيب الذي أدى إلى فقدان البصر، ومن الهجرة، وترك الوطن، إلى الاستشهاد في سبيل الله، وأشكال أخرى من الاضطهاد.

أصاب صحابة الرسول، وبالأخص العبيد والضعفاء منهم، عذاب شديد من قبل كفار قريش.

فقد روى ابن اسحق: «.. ثم إنهم عدوا على من أسلم، واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم

---

[1] م.س.ن، ص.ن.

[2] سورة الأنعام: ٣٤.

[3] سورة فصلت: ٤٣.

ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذ اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم..».[1]

فمن هؤلاء الصحابة الذين عذبوا، وأبلوا بلاء حسناً، (بلال بن رباح) مولى أمية بن وهب بن حذاقة من جمح، «كان إذا حميت الظهيرة في بطحاء مكة، يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقال له: لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد، أحد..، وكان يمر به وهو يعذب – ورقة ابن نوفل – بذلك فيقول ورقة: (أحد أحد والله يابلال، ثم يقبل على أمية بن خلف، ومن يصنع ذلك به من بني جمح، فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً)[2] ..».[3]

إن الذي جعل ورقة بن نوفل يتخذ هذا الموقف المؤيد لبلال، ولعقيدته، ومؤنباً ومخاصماً لسادة بلال المشركين، هو أسلوب الدعوة الذي انتهجه رسول الله وصحابته، والمتمثل بأداء الواجب مهما كان مركز صاحبه، دون المطالبة بالحقوق، ولمعرفته أن هذا النبي وأصحابه أهل دعوة حق ورسالة سماوية.

لقد لاقى صحابة آخرون عذاباً شديداً، من قبل مشركي مكة، فكان منهم آل ياسر.

روى ابن اسحق: «.. وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه، وبأمه، وكانوا أهل بيت اسلام، إذ حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول: صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة، فأما أمه فقتلوها، وهي

---

[1] ابن هشام، م.س. ج١، ص٢٧٧.

[2] حنانا: أي إذا مات أجعل قبره متبركاً به.

[3] ابن هشام، م.س: ج١، ص٢٧٧، ٢٧٨.

تأبى إلا الاسلام وكانت أول شهيدة في سبيل الله».[1]

إلا أن أذى الكفار واضطهادهم لصحابة رسول الله ﷺ جعل قسم من الصحابة يهاجر إلى الحبشة، ولقد كان لهذه الهجرة في سبيل العقيدة، أثر نفسي في نفوس كفار قريش، وكان بينهم آنذاك عمر بن الخطاب، «.. فعن أم عبد الله بنت أبي حثمة، قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذا أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركه، قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا، قالت: فقال: إنه للانطلاق ياأم عبد الله! قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله آذيتمونا، وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجا. قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه، فيما رأى خروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجته تلك فقلت له: ياأبا عبد الله لو رأيت عمراً آنفاً ورقته، وحزنه علينا.

قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلايسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، فقالت: يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الاسلام..».[2]

على الرغم من شدة العذاب الذي أصاب صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقد كان يأمرهم بالصبر والحلم، وكظم الغيظ، ومنعهم من الانتقام لأنفسهم من أعدائهم، بل منعهم حتى من الدفاع عن أنفسهم وذلك بوحي من السماء. لأن العذاب، والمحن هو الذي يفرز الخبيث من الطيب، وتحمل هذه الظروف الصعبة هي التي تؤهل حامليها لقيادة المجتمع الجديد بمجتمع الدولة على أساس الدعوة والعقيدة.

---

[1] ابن هشام: ج١، ص٢٧٩.

[2] ابن هشام: م.س، ج١، ص٤٩٤، ٤٩٥.

قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة..﴾.[1]

لكن الانسان يضعف أحياناً أمـام أهـوال العـذاب، لـذا طلـب صحـابي مـن رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم ويخلصهم من العذاب. فقد «روى عن خبـاب بـن الأرت أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة، وهو في ظـل الكعبـة، وقـد لقينا من المشركين شدة، فقلت يارسول الله: ألا تدعو اللـه لنـا؟ فقعـد وهـو محمـر الوجه، فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحـم أو عصب، مايصرف عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكـب مـن صنعـاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله».[2]

وفي الأمم التي خلت أوصى بوذا أحد تلامذته المدعو (بوريا) قبـل أن يرسـله للتبشير سأله:

- إذا اتفق يابوريا ووجه إليك أحدهم ألفاظاً بذيئة خشنة وقحة فمـاذا أنـت قائل؟

- أجابه التلميذ: أشكرهم لأنهم لم يضربوني.

- وإن ضربوك أو رموك بالأحجار؟

- أشكرهم لأنهم لم يضربوني بالعصا أو بالسيف.

- وإن ضربوك بالعصي أو بالسيوف.

- أشكرهم لأنهم لم يحرموني الحياة نهائياً.

- وإن حرموك الحياة؟

- أشكرهم إذ خلصوا روحي من سجن هذا الجسد السيء دون ألم كبير.

«فقال بوذا حينئذ: أحسنت يابوريا بما أوتيت مـن الصبر، والعزم، والحزم، والثبات. فاذهب إلى القبيلة وأقم فيها، وكما وصلت إلى الساحل فأوصلهم معـك،

---

[1] سورة النساء: ٧٧.

[2] رواه البخاري..

وكما تعزيت فعزهم معك، وكما وصلت إلى النرفانا الكاملة فأوصلهم أيضاً معك».[1]

أما اليسوع فقد قال مؤنباً أحد أتباعه عندما سل سيفه «... وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده، واستل سيفه، وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فقال له يسوع: رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون».[2]

إن المحن، والصعوبات التي تصيب الدعاة، هي التي تفرز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق، فلو ترك الأمر بدون ابتلاء، لاستوى في ذلك الصادق والكاذب، لأن التضحيات في سبيل الدعوة، هي المحك الأساسي والجوهري لمدى الالتزام بمبادئ هذه الدعوة، وصدق الذين يعتنقونها.

قال تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون ۞ ولقد فتنا الذين من قبلكم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.[3]

وتتوالى المحن، والمضايقات لرسول الله وأصحابه، فمن الحصار والمقاطعة الاقتصادية، التي استمرت ثلاث سنوات، إلى الهجرتين الأولى والثانية، ولعل الهجرة فيها من العذاب والألم، أكثر مما في العذاب الجسدي من ألم.

في الهجرة، ترك للمال، وللأهل، وللوطن، أما زمن العودة فغير معروف، إنها الاختبار الثاني لرجال الدعوة، بعد صبرهم، وتحملهم لآلام العذاب الذي حل بهم وهم في مكة.

لقد أسس المسلمون، ورسولهم الكريم دولة الاسلام في المدينة المنورة،

---

(1) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. الملل والمحل، تحقيق محمد سيد كيلاني (بيروت: دار صعب، ١٩٨٦) ج٢، ص١٥.

(2) انجيل متى: الاصحاح ٢٦.

(3) سورة العنكبوت: ٢، ٣.

وصارت لهم شوكة وقوة، يستطيعون أن يقاتلوا من يعترض دعوتهم، وفي حالات كانوا هم البادئين بالقتال، لقد أذن لهم بذلك بعد تشكل المجتمع المسلم وتمايزه.

ويبقى فتح مكة، عاصمة ومركز المشركين آنذاك. حدثاً له أهمية خاصة لقد أعطى رسول الله ﷺ، في موقفه من مشركي مكة، أعدائه وخصومه في العقيدة والذين أوقعوا كل أشكال الاضطهاد به وبأصحابه، درساً غاية في الرحمة، والتسامح، والمحبة، والعفو عند المقدرة، وذلك عندما كبح حب الانتقام عند صحابي من الأنصار، عندما استل حسامه لإراقة دماء مشركي مكة.

فقد «بلغ رسول الله ﷺ أن سعد بن عبادة، قال لأبي سفيان عندما رآه في مضيق الوادي: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فلم يرض عليه الصلاة والسلام بقوله هذا، فقال: بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعظم الله الكعبة. وأمر قادة جيشه أن لايقاتلوا إلا من قاتلهم. وخطب رسول الله قائلاً:... يامعشر قريش ماترون إني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».[1]

فعلى الرغم من أن رسول الله وصحابته، أصبحوا يملكون القوة، التي يستطيعون بها الانتقام من كفار قريش، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك، بل أخمدوا نار الفتنة، وأنهوا دورة العنف في المجتمع الاسلامي قبل أن تبدأ ثانية.

وبهذا كان بنيان الدولة الاسلامية – ماالتزمت بهذا المبدأ – قوياً متيناً تربط أفراده المحبة، والود والتسامح، والعفو.

وقال عيسى ﷺ: «أرأيتم البنائين كيف لايضعون حجرا، إلا والأساس نصب أعينهم، فيقيسونه ليروا إذا كان مستقيماً لكيلا يسقط الجدار».[2] هذا بالنسبة لمن يبني جداراً، فكيف بمن يسعى لبناء مجتمع جديد؟!

---

(1) ابن هشام، م.س: ج٢، ص٤١.

(2) انجيل برنابا: ص١٤١.

فقد عبر بوذا عن أهمية التسامح مع الآخرين قائلاً: «فلئن كنا نرد على البغض، ببغض مثله، فكيف يمكن أن تنتهي البغضاء؟».[1]

إن المجتمع الذي كان محمد ﷺ يسعى لبنائه، وقد بناه فعلاً، هو مجتمع المحبة، والايثار، والتسامح، والعدل، مجتمع البنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا..

ترتبط قضية التعاضد الاجتماعي الذي دعى إليها الاسلام، باستقرار، واستمرار المجتمع على أسس تكافلية بين جميع أفراد الجماعة، وبكل مستوياتهم الاجتماعية. عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذ اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».[2]

---

(1) فيلسيان شالي، موجز تاريخ الأديان، ترجمة حافظ الجمالي، (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٠) ص:٩٩.

(2) رواه الشيخان.

المبحث الثاني
أحاديث نبوية بين الحاكم والمحكوم

لم يترك رسول الله ﷺ شيئاً ذا أهمية في عالم الدين والنواميس الأخلاقية، إلا وحث عليه إذا كان خيراً، وحذرنا منه إذا كان شراً.

وقد وضع حدوداً تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، لما لهذه العلاقة من أهمية في استقرار الجماعة واستمرارها.

فكانت حياته، عليه الصلاة والسلام: مثالاً حياً لصورة الحاكم المسلم على الرغم من بساطة الدولة الاسلامية في بدايتها من حيث التركيبة السياسية، إذ كانت أقرب ماتكون إلى التنظيم القبلي وإن بدت أكثر تطوراً، وقد أعطى نموذجاً فريداً في قيادة الجماعة، فكانت استشارته لأصحابه من العلامات البارزة في سلوكه السياسي، فلم ينفرد برأي، مادامت الجماعة المسلمة ترى غير ذلك، فالمسلمون أعلم بأمور دنياهم، ومادام الأمر لايتعلق بوحي السماء، فالرسول ﷺ يصيب ويخطأ.

قال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾.[1]

---

[1] سورة آل عمران: ١٥٩.

وقال تعالى: ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾.[1]

إن ممارسة رسول الله كقائد للدولة الاسلامية ومشاورته لأصحابه أنهى سلوك استبداد الحاكم لشعبه، لأن سياسة الدولة أمر دنيوي. وبذلك الغى مفهوم الحاكم المقدس المرتبط بالسماء، الذي لايعرف حكمه الخطأ أو المراجعة فلم يحصر المسؤولية بشخص الحاكم فقط، بل جعلها مسؤولية اجتماعية، كل في عمله، بدءاً من المنزل وانتهاءاً بالحاكم الأعلى للأمة..

«فعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالامام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».[2]

فالرعاية في هذا الحديث هي حفظ الأمانة وإقرار المسؤولية، وهي موزعة على جميع أفراد المجتمع، كل مسؤول عما كلف برعايته وحفظه. وإذا لم تحفظ الأمانة فنحن أمام الظلم الشامل لجميع مستويات الجماعة، فالحاكم الذي لايساعد الناس على نيل حقوقهم هو ظالم.

والرجل الذي يسيء معاملة زوجته وأولاده هو ظالم.

والمرأة التي لاتراعي حقوق زوجها، وتهمل تربية أولادها هي ظالمة.

والرجل الذي لايحفظ مال سيده، أو من استأجره، هو ظالم.

وفي مجتمع يعم فيه الظلم واللامسؤولية يحتاج إلى عمليتي تطهير، وإعادة بناء، وفق معايير العدل والمساواة لأنه مهدد بالإنهيار.

---

[1] سورة الشورى: ٣٨.

[2] رواه البخاري.

لكن ماهي واجبات المحكوم تجاه الحاكم؟ وإلى أي مدى يجب طاعة الحاكم؟

١- واجبات المحكوم تجاه الحاكم:

يمكن تقسيم واجبات المحكوم تجاه الحاكم إلى ثلاثة مستويات:

أ- المستوى الأول: الطاعة في المعروف:

هذه الطاعة مشروطة بطاعة أولى الأمر لله ولرسوله.

قال تعالى: ﴿ياأيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم...﴾.[١]

ولهذه الطاعة حدود، أولها: استطاعة الفرد نفسه أن يفي بالواجبات المترتبة على البيعة.

«روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعتم».[٢]

وثاني هذه الحدود الطاعة في المعروف، فلا طاعة في المعصية.

«وعن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: على المرء السمع والطاعة، فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».[٣]

ب - المستوى الثاني: النصيحة وقول كلمة الحق للحاكم:

«قال ﷺ: إن الله يرضى لكم ثلاثة: أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم».[٤]

و«قال ﷺ: الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة قالوا لمن

---

[١] سورة النساء: ٥٩.

[٢] رواه الشيخان.

[٣] رواه مسلم.

[٤] رواه مسلم.

يارسول الله؟ قال ﷺ: لله، وكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم».[1]

لكن النصيحة الهادئة اللينة، لاتجد نفعاً، في بعض الأحيان، وخاصة إذا كان الحاكم جائراً، فهنا تصبح كلمة الحق من أعظم أشكال الجهاد. لأن قول الحق يمنع استبداد الحاكم في رعيته.

فقد قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».[2]

«وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».[3]

ويلاحظ من الحديثين السابقين أن تغير المنكر يتم بالقول، وإلا بالقلب، أما التغير للمنكر باليد فيحتاج إلى قوة بحيث تكون العاقبة في صالح الآمر بالمعروف، ولاتنعكس عليه سلبا، وإلا صار هذا التغيير فتنة اجتماعية.

لكن ماهو موقف المسلم إذا ابتلى بحاكم جائر؟ وهنا نكون في المستوى الثالث لحدود الطاعة.

ج- الصبر وأداء الواجب:

«فعن أبي مسعود ﷺ. قال: قال رسول الله ﷺ: إنكم سترون بعدي أثره وأموراً تنكرونها قالوا: فما تأمرنا يارسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم، واسألوا الله حقكم».[4]

و«عن عوف بن مالك الأشجعي عن رسول الله ﷺ قال: خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين

---

[1] رواه البخاري.

[2] رواه ابن ماجه والترمذي وأبو داود.

[3] رواه مسلم.

[4] رواه الشيخان.

تبغضونهم ويبغضونكم. قلنا: يارسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: لا. ماأقاموا فيكم الصلاة، لاماأقاموا فيكم الصلاة».[1]

«وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لاننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله منه برهان، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ولانخاف في الله لومة لائم».[2]

من خلال قراءة الأحاديث السابقة نلاحظ أن رسول الله دعى إلى طاعة الحكام، لكن هذه الطاعة مشروطة، بأن لاتكون في معصية الله، وفي حال ابتليت الأمة بحاكم ظالم، يبدأ في هذه الحالة، الصراع السلمي من خلال المعارضة القولية للمستبد، وحذر ﷺ من انتقال هذه المعارضة إلى معارضة مسلحة، لأن عاقبة هذه المعارضة الفتن، وعدم الاستقرار، واضطراب أحوال الأمة. ويبقى ظلم الحاكم أهون من الفتنة الناتجة عن الخروج عليه، أما من يقول كلمة الحق أمام الحاكم الظالم، فهو شهيد، إذا قتله هذا الحاكم الجائر نتيجة لقول كلمة الحق، فالفارق شاسع بين الخروج وبين الشهادة.

لكن الخروج على القانون الظالم ليس بقتال صاحبه، بل بعدم الالتزام بتنفيذه، وفي هذا مراقبة للحاكم من قبل الأمة، فتخفف من ظلمه، بل تكبحه عن ممارسة الظلم أصلاً، ويقوم بهذا الأمر الجلل ممثلوا الأمة من (محكمة دستورية عليا، نواب الأمة، أهل الحل والعقد، مجلس خبراء في كافة شؤون المجتمع... الخ).

قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾.[3]

---

[1] رواه مسلم.

[2] رواه الشيخان.

[3] سورة آل عمران: ١٠٤.

٢- واجبات الحاكم تجاه المحكوم:

إن العدل وإزالة الظلم، من الواجبات الرئيسة للحاكم تجاه الأمة، لأن الاسلام جاء ليزيل الظلم، ويشيع العدل بين الناس، ولم يأت ليزيل الكفر.

لذا فإن أغلب الأحاديث النبوية التي وردت في صفات الحاكم تحث الحاكم على العدل، لماله من عواقب حميدة سواء على المستوى الشخصي للحاكم في دنياه وآخرته، أو بالنسبة للجماعة الانسانية بشكل عام. فجزاء العدل الجنة، أما الظلم فجزاؤه النار، وبغض الله له.

«فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...».[١]

«وعن عياض بن حمار ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: أهل الجنة ثلاثة: سلطان مقسط، ورجل رحيم القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل غني عفيف متصدق».[٢]

«وعن النبي ﷺ أنه قال: أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغضهم إليه إمام جائر».[٣]

والعدل هدف كل الشرائع السماوية قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط...﴾.[٤]

وقال تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل...﴾.[٥]

---

[١] رواه الشيخان.

[٢] رواه مسلم.

[٣] رواه الامام أحمد في مسنده.

[٤] سورة الحديد: ٢٥.

[٥] سورة النساء: ٥٨.

والعدل في المنظور الاسلامي عدل مطلق يجب أن يسود كل الظروف والفئات في حالة الرضى والنزاع مع الأصدقاء والأعداء.

قال تعالى: ﴿... ولايجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى...﴾.[1]

وقد حذر رسول الله من غش الرعية، «فقال ﷺ: مامن راع يسترعيه الله رعيته، يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة».[2]

وقد دعا رسول الله للحاكم العادل الرفيق برعيته، ودعا على الحاكم الظالم: «فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فأرفق به».[3]

ومن واجبات الحاكم أن يختار الأكفاء لشغل مناصب الدولة معتمداً مبدأ تكافؤ الفرص أمام الجميع، دون اعتبارات النسب والقربى، أو الطبقة الاجتماعية.

«قال عليه الصلاة والسلام: من قلد رجلاً عملا على عصابة، وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه، فقد خان الله وخان رسوله، وخان المؤمنين».[4]

لكن هل يعتبر ظلم الحاكم قدراً مكتوباً على الأمة لاخلاص منه؟ وهل من المعقول أن يبقى الحاكم الظالم دون رقابة، أو أخذ على يديه، انتظاراً ليوم الحساب؟.

لعل في تطور الفكر السياسي الانساني وما وصل إليه من تجربة وممارسة فيه العلاج الصحيح لظلم الحاكم، وذلك بتحديد مدة حكمه، وبوجود هيئة دستورية

---

(1) سورة المائدة:-٨.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه مسلم.

(4) رواه الحاكم في صحيحه.

تراقب تصرفات الحاكم، ولاتسمح له بالظلم، خاصة إذا كانت هذه الهيئة مستقلة عن سلطة الحاكم. وأي حاكم وصل إلى الحكم بشكل ديمقراطي، لايمكنه إلا أن يعدل مع شعبه، لأنه يحتاج إليهم في مرحلة قادمة إذا أراد الاستمرار في الحكم، ولوجود معارضة سياسية تراقب كل صغيرة وكبيرة تصدر عنه، خاصة السلبيات منها.

يلاحظ أن الأحاديث السابقة تؤكد على ضرورة وجود الحاكم، ولزوم طاعته وإن كان ظالماً وصل إلى الحكم بطريق الاغتصاب، وتبين طرق المعارضة وتقويم الأخطاء أقلها الطاعة المشروطة والانكار القلبي، وأعلاها قول الحق، والاستشهاد في سبيل ذلك، وتحذر من الخروج على الجماعة لما له من عاقبة سيئة، وخطيرة على مستوى الفرد والجماعة.

المبحث الثالث

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مبدأ هام في حياة الجماعة المسلمة وهو الذي أخرج المسلم من مرحلة العصا بيد الحاكم، إلى مرحلة الانسان الحامل للفكرة الذي لديه مقياس يستطيع على أساسه أن يقبل أو يرفض.

وقول الحق واجب على كل مسلم، أينما حل، في البيت، في المعمل، في الشارع.. الخ. وهو فرض عين على الأمة لايسقطه إلا قيام فئة أو جماعة بهذا العمل الهام. لكن ماهي مواصفات الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر؟

لقد حددها ابن تيمية قائلاً: «لابد من ثلاث صفات يجب أن تتوفر في الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، وهي العلم، والرفق، والصبر.

العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، هذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ورووه مرفوعاً، ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد: لايأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيها فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه». [1]

لقد ربط الله سبحانه وتعالى بين خيرية الأمة، وقيامها بواجب الأمر

---

[1] ابن تيمية، تقي الدين أحمد عبد الحليم، الحسبة في الاسلام، (بيروت: دار الكاتب العربي، [د.ت])، ص٧٢، ٧٣.

بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..﴾.[1]

أما الذين مكنهم الله في الأرض، فقد أناط بهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى الناتج عن أداء هذه الوظيفة الاجتماعية الهامة.

قال تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾.[3]

و«عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وماأرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».[4]

هكذا نجد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضية اجتماعية، لأن لهذا المبدأ وظيفة تطهيرية مباشرة، تمنع من تراكم الأخطاء، وزيادة الانحرافات التي تحدث عند تطبيق المبادئ النظرية، وممارستها عملياً، وفي غياب هذا المبدأ عن الساحة السياسية سنجد فرقاً شاسعاً، إن لم يكن مغايراً تماماً، بين النظرية وبين

---

[1] سورة آل عمران: ١١٠.

[2] سورة الحج ٤١.

[3] سورة لقمان: ١٧.

[4] رواه البخاري.

تطبيقاتها، وهو مايسمى بالنقد، والنقد الذاتي لأنـه كمشـرط الجـراح الـذي يزيـل أسباب المرض الذي يصيب الجسم.

«عن حذيفة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: والـذي نفسـي بيـده لتـأمرن بـالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن اللـه أن يبعـث عليكـم عقابـا منـه ثـم تدعونـه فـلا يستجاب لكم».(1)

هذا على المستوى النظري أما على المستوى التطبيقي لهذا المبـدأ فقـد كـانت هنالك مواقف عديدة بين الفقهاء والحاكم علـى مـدى التـاريخ الاسـلامي. وذلـك لتداخل السياسي مع الديني في الشريعة الاسلامية، لأن الأمر بالمعروف والنهي عـن المنكر تطبيقاً مباشراً للعقيدة.

وفي تجربة أبي ذر الغفاري المعارضة لسياسة الدولة، التي ابتعدت عـن تعـاليم الدعـوة، في بعـض تصرفـات ولاتهـا، الذيـن فتحـت عليهـم الدنيـا، فغـيرت مـن أحوالهـم، إلا بعض الصحابة الذين اتبعـوا الزهـد والـورع سـلوكاً حياتيـاً واعتـبروا اقبال الدنيا على المسلمين من المهلكات، على الرغم من شـرعية الأخـذ مـن الدنيـا بنصيب.

إن معارضة أبي ذر الغفاري لـم تخرجـه مـن الجماعـة، ولـم يدعـو إلى ثـورة مسلحة على أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ. فقد التزم الجماعة وقال الكلمة التي رأى أنها الحق.

«فعن عبد الله بن سيدان السلمي قال: تناجى أبي ذر وعثمان حتى ارتفعـت أصواتهما، ثم انصرف أبو ذر مبتسماً فقال له الناس: مالك ولأمير المؤمنـين؟ قـال: سامع ومطيع ولو أمرني أن آتـي صنعـاء أو عـدن ثـم اسـتطعت أن أفعـل لفعلـت. وأمره عثمان أن يخرج إلى الربذة».(2)

---

(1) رواه الترمذي.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى. (بيروت: دار صادر، ١٩٨٥) ج٤، ص٢٧.

يلاحظ من نص الحديث أن الطاعة قدر الاستطاعة مالم تكن في معصية. لقد عرض على أبي ذر، تشكيل جماعة مسلحة ضد عثمان بن عفان ﷺ فرفض، على الرغم من عدم رضائه عن تصرفات بعض الأمراء وعن بعض تصرفات الخليفة نفسه «فعن يزيد بن هارون قال: أخبرنا العوام بن حوشب قال: حدثني رجل من أصحاب الآجر عن شيخين من بني ثعلبة رجل وامرأته قالا: نزلنا الربذة فمر بنا شيخ أشعث أبيض الرأس واللحية فقالوا: هذا من أصحاب رسول الله ﷺ فأستأذناه أن نغسل رأسه فأذن لنا واستأنس بنا، فبينما نحن كذلك، إذ أتاه نفر من العراق، حسبته قال من أهل الكوفة، فقالوا: ياأباذر فعل بك هذا وفعل (يقصدون عثمان بن عفان ﷺ) فهل أنت ناصب لنا راية؟ فلنكمل برجال ماشئت فقال: ياأهل الاسلام لاتعرضوا علي ذاكم ولاتذلوا السلطان، فإنه من أذل السلطان فلا توبة له، والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة، أو أطول جبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي، ولو سيرني مابين الأفق إلى الأفق، أو قال مابين المشرق والمغرب، لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي، ولو ردني إلى منزلي لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي».[1]

فقد «بدأ فقه السياسة كجميع فروع الفقه الأخرى بالحديث النبوي. ففي عصر الراشدين والعصر الأموي كان الحكم الشرعي يلتمس من القرآن و(الأثر) عموماً: مايروى من حديث وأخبار عن الرسول والصحابة، وبما أن القرآن لم يتعرض لمسائل الحكم والسياسة ولا لشكل الدولة، وبما أن الصحابة قد اختلفوا منذ وفاة النبي في هذه المسائل بالذات واستفحل الخلاف زمن الفتنة استفحالاً هدد

---

[1] م.س، ص.ن.

كيان المجتمع الاسلامي، فإن المرجعية الوحيدة التي كـانت تلتمـس منهـا الشـرعية الدينية لقضايا السياسة هي (الحديث).».[1]

[1] الجابري، محمد عابد: نقد العقل العربي (٣)، العقل السياسي العربي - محدداته وتجلياته، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠) ص٣٥٦-٣٥٧.

الفصل الثالث

علاقة الفقهاء بالسلطان

١- الجانب النظري

المبحث الأول: وجوب الخلافة

المبحث الثاني: شروط وصفات الخليفة

المبحث الثالث: شروط الحاكم بين الواقع والنص

المبحث الرابع: إمامة المفضول مع وجود الفاضل.

المبحث الخامس: الحاكم المتغلب

المبحث السادس: أهل البغي

المبحث الأول

وجوب الخلافة

أحس المسلمون بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقهم، عقب وفاة رسول الله ﷺ، فلم يستطيعوا البقاء يوماً، أو بعض يوم بدون قائد، لأنه لاجماعة ولا مجتمع بلا قائد.

فكان تعيين خليفة لرسول الله ﷺ، أول مشكلة سياسية، واجهت الأمة، وأمام هذا الحدث الهام، انقسم المسلمون إلى ثلاث فئات:

أ- الفئة الأولى: كان الأنصار أسرع المسلمين تفكيراً في موضوع الخلافة، ويرون أنهم أصحاب حق في هذا المنصب الأعلى لحسن بلائهم في الاسلام، ولتوطيدهم مع المهاجرين أركان الدولة الاسلامية، التي جعلت المدينة المنورة عاصمة لها.

ب- الفئة الثانية: ويقابل الأنصار في أحقية أن تكون الخلافة فيهم، المهاجرون الذين تركوا الأهل، والمال، والوطن، في سبيل نشر العقيدة، ونصرة الدين، وتوطيد أركان الدولة الجديدة التي ضحوا في سبيل قيامها بالغالي والرخيص وعانوا من الاضطهاد والاستشهاد، والتهجير.. الخ.

ج- الفئة الثالثة: وقوام هذه الفئة هم آل بيت رسول الله، الذين يرون أنهم أصحاب الحق، لقرابتهم من رسول الله ﷺ، وأنهم أولى بالخلافة من جميع المسلمين.

إن عدم لجوء رسول الله إلى تعيين خليفة له يحكم الأمة، ويدير شؤون دينها ودنياها، جعل الأمة تواجه أمراً سياسياً في غاية الخطورة يهدد كيان الجماعة إذا لم تجد له حلاً.

ولو اختار رسول الله ﷺ خليفة للمسلمين لظنوا أن هذا الاختيار هو إرادة الله، وبهذا لايحق لأحد من الرعية معارضة الحاكم الذي يسوس الأمة بارادة الله ومشيئته، مما يترتب على هذا طاعة لاتعرف المحاسبة، أو المراقبة.

لقد انقسم المسلمون، واختلفوا في الامامة، كما لم يختلفوا في غيرها من أمور الدين، أو الدنيا، «وماسل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ماسل على الامامة في كل زمان».[1]

فأهل السنة يرون الامامة (الخلافة) قضية اجتماعية يقررها أفراد المجتمع الاسلامي، بمؤسساته السياسية، وفقاً للظروف الاجتماعية.

«بينما يراها الشيعة، أصلاً من أصول الدين، بل هي عندهم ركن الدين وقاعدة الاسلام».[2]

لقد اختلف الفقهاء والمفكرون في قضية وجوب الخلافة، أتجب عقلاً، أم نقلا؟ وهل يمكن للأمة الاستغناء عن منصب الخلافة؟ أمامنا آراء عديدة في وجوب الخلافة نستعرض أهمها:

١- راي الامام الشافعي:

«يعتقد الشافعي ﷺ أن الامامة لابد منها، يعمل تحت ظلها المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويقاتل بها العدو، وتؤمن بها السبل، ويؤخذ بها للضعيف من القوي،

---

(١) الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم. الملل والنحل، تحقيق محمد سعيد كيلاني (بيروت: دار صعب ١٩٨٦) ج١، ص٢٤.

(٢) ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. المقدمة، (بيروت: دار القلم ١٩٧٨)، ص٢٤.

حتى يستريح بر، ويستراح من فاجر».[1]

٢- راي الامام احمد بن حنبل:

يرى الامام أحمد أن الخلافة ضرورية للجماعة، حتى ولو كان الخليفة باغياً فاجراً «... والسمع والطاعة للأئمة، وأمير المؤمنين، البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به، ومن غلبهم بالسيف صار خليفة وسمي أمير المؤمنين..».[2]

٣- راي الغزالي:

يرى الغزالي أن منصب الامامة واجب نقلا، ويؤكده العقل لما بين الدين والدنيا من علاقة وثيقة، ومتبادلة، ومتكافئة. «لأن الدنيا، والأمن على الأنفس والأموال لاينتظم إلا بسلطان مطاع، فتشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت السلاطين والأئمة، وإن ذلك لو دام، ولم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع، دام الهرج، وعم السيف، وشمل القحط، وهلكت المواشي، وبطلت الصناعات، وكان كل من غلب سلب، ولم يتفرغ للعباده والعلم إن بقي، والأكثرون يهلكون تحت ظلال السيوف.. وعلى الجملة لايتمارى العاقل في أن الخلق على اختلاف طبقاتهم وماهم عليه من تشتت الأهواء، وتباين الآراء، لو خلوا وراءهم ولم يكن رأي مطاع جمع شتاتهم، لهلكوا من عند آخرهم وهذا داء لا علاج له إلا بسلطان قاهر مطاع يجمع شتات الآراء، فبان أن السلطان ضروري في نظام الدين، ونظام الدنيا ضروري في الفوز بسعادة الآخرة، وهو مقصود الأنبياء قطعاً، فكان وجوب نصب الامام من ضروريات الشرع الذي لاسبيل إلى تركه»..[3]

---

[1] أبو زهرة، محمد. الشافعي: حياته وعصره – آراؤه وفقهه، (القاهرة: دار الفكر العربي، [د.ت])، ص١٢١.

[2] ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن. مناقب الامام أحمد بن حنبل ط١، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٣) ص١٧٥.

[3] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. الاقتصاد في الاعتقاد، ط١ (بيروت: دار الأمانة: ١٩٦٩) ص٢١٥.

٤- راي ابن تيمية:

يرى ابن تيمية أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها. «.. فإن بني آدم لاتتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس حتى (قال رسول الله ﷺ: إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم).[١] فأوجب عليه الصلاة والسلام تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولايتم ذلك إلا بقوة وإمارة.. وإقامة الحدود لاتتم إلا بالقوة والامارة.. ولهذا روي: (أن السلطان ظل الله في الأرض، ويقال: ستون سنة من امام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان) والتجربة تبين ذلك فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله».[٢]

إن قراءة الواقع، والاستفادة من تجارب الذين خلوا من قبل نجد تعليل ابن تيمية صحيحاً لضرورة وجود الحاكم ولو كان جائراً، لما لغيابه، أو لقتاله من نتائج سيئة تصيب كيان الأمة وبنية الجماعة.

ثم يعلل ابن تيمية ضرورة وجود الحاكم على رأس الجماعة، من الناحية الاجتماعية. «... وكل بني آدم لاتتم مصلحتهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتناصر، فالتعاون والتناصر على جلب منافعهم، والتناصر لدفع مضارهم، ولهذا يقال: الانسان مدني بطبعه، فإذا اجتمع الناس فلا بد لهم من أمور يفعلوها يجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد، وللناه عن تلك المفاسد، فجميع بني آدم لابد لهم من طاعة آمروناه، فمن لم يكن من أهل الكتب الإلهية، ولا من أهل دين فإنهم يطيعون ملوكهم فيما يرون أنه يعود عليهم بمصالح دنياهم، مصيبين تارة ومخطئين

---

[١] رواه أبو داود.

[٢] ابن تيمية. السياسة الشرعية. (بيروت: دار الكتب العلمية [د.ت]) ص١٣٨-١٣٩.

أخرى، أما أتباع الأنبياء فيطيعون أنبياءهم وشرائعهم فيما تأمر وتنهي».[1]

نلاحظ أن ابن تيمية صاحب فكر اجتماعي، وقد سبق ابن خلدون في تعليله لوجوب الخلافة، من الناحية الاجتماعية.

٥- راي ابن خلدون:

يرى ابن خلدون «أن نصب الامام واجب قد عرف وجوبه في الشرع باجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته، بادروا إلى بيعة أبي بكر ﷺ، وإلى تسليم النظر في أمورهم إليه، وكذا في كل عصر من بعد ذلك، ولم يترك الناس فوضى في عصر من العصور، واستقر ذلك اجماعاً على وجوب الامام، وقد ذهب الناس إلى أن مرجع وجوبه العقل، وأن الاجماع الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه... ولكن دليلهم على ذلك لاينهض.. فبقي القول بأن مرجع وجوبه هو الشرع، وهو الاجماع الذي قدمنا».[2]

٦- راي المعتزلة:

لقد «انقسم المعتزلة في وجوب الخلافة إلى قسمين، فإن البصريين يقولون: طريق وجوبها الشرع، وليس في العقل مايدل على وجوبها!، وقال البغداديون، وأبو عثمان الجاحظ من البصريين، إن العقل يدل على وجوب الرئاسة».[3]

٧- راي الخوارج:

لقد اختلف الخوارج في الخلافة فقسم لايراها ضرورية، وقسم آخر يرى وجوبها «فالمحكمة الأولى من الخوارج تقول: ... أن لايكون في العالم إمام أصلا،

---

[1] ابن تيمية. وظيفة الحكومة الاسلامية، (بيروت: دار الكتاب العربي [د.ت]) ص٢-٣.

[2] ابن خلدون. المقدمة، ص١٩١.

[3] ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة، ج١، ص٢١٥.

وان احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً».[1]

«وقد أجمعت النجدات على أنه لاحاجة للناس إلى إمام فقط، وأنما عليهم أن يتناصفوا فيمابينهم، فإن هم رأوا أن ذلك لايتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز».[2]

٨- راي الشيعة:

«قالوا ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة، وينتصب الامام بتنصيبهم بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لايجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله، ولاتفويضه إلى العامة، وإرساله».[3] من النص السابق نجد أن الإمامة واجبة نقلاً، لأنها تكون بالوصاية.

---

[1] الشهرستاني. الملل والنحل، ج١، ص١١٦.

[2] م.ن: ج١، ص١٢٤.

[3] م.ن: ج١، ص١٤٦.

المبحث الثاني

شروط وصفات الخليفة

لقد وضع الفقهاء ومفكرو السياسة في الاسلام شروطاً، وصفات للحاكم، تباينت بين النسب والعلم والحرية والذكورة.. الخ ومثلما انقسمت الأمة نتيجة للموقف السياسي من الخلافة، كمنصب، ومن يشغله؟ كذلك اختلفت شروط وصفات الخليفة بين الفرق الاسلامية، وهذه الشروط هي من أهم نقاط الاختلاف في القضايا السياسية التي نتج عنها خلاف ديني في الفروع.

إلا أن الأطر النظرية للممارسة السياسية في الاسلام، جاءت في المرحلة التالية لوجود السلطة السياسية، سواء كانت هذه السلطة عادلة أم جائرة وبالتالي كان الفكر السياسي الاسلامي تابعاً، ومهادناً، ومبرراً أحياناً للوضع الراهن للسلطة السياسية القائمة، فالنظرية السياسية الاسلامية هي نظرية الأمر الواقع وليس بالإمكان أفضل مما كان.

أولاً- صفات وشروط الحاكم عند الفقهاء:

لقد وضع الفقهاء صفات وشروطاً معينة يجب توفرها في الحاكم، أو فيمن يرشح لهذا المنصب.

آ- شروط وصفات الحاكم عند الإمام زيد والإمامية:

يرى الإمام زيد «أن الأفضل في الامام أن يكون عدلاً فاطمياً، أي يكون من

ذرية علي من فاطمة رضي الله عنهما.. وخالف بذلك الإمامية الذين كانوا يشترطون أن يكون الامام من أولاد الحسين. فلم يثبتوا الإمامة إلا لعلي، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم علي زين العابدين، ثم لمحمد الباقر، ثم لجعفر الصادق، ثم اختلفوا من بعد ذلك مابين اثنى عشرية، واسماعيلية.. الخ».[1]

وقد اشترط الامام زيد لإستحقاق الإمام من آل البيت الإمامة «.. أن يخرج داعياً لنفسه، وبذلك هجر مبدأ التقية الذي كان قد التزمه آل البيت بعد مقتل الامام الحسين ﷺ»[2] كسلوك سياسي تجاه السلطة القائمة ويبدو تأثر الامام زيد بفكر المعتزلة الذي يعتبر مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أصولهم الخمسة، لذلك خرج داعياً لنفسه، كي يتلازم القول والعمل بحيث يتم الايمان.

ب- شروط وصفات الحاكم عند أبي حنيفة:

إن رأي الامام أبي حنيفة فيمن يكون خليفة، قريب من رأي الامام زيد وذلك لأن أبا حنيفة تتلمذ على يد الامام زيد، وغيره من آل البيت، ولعلاقة قديمة بين أبيه والامام علي كرم الله وجهه، وكواحد من المسلمين مأمورين بحب رسول الله وبحب آل بيته، إلا أن هذا الحب، ليس بالضرورة تشيعاً، وله دلالة سياسية، وبالتالي «فهو لايرى أن الامام قد نص عليه بوصاية،.. إلا أنه يرى الخلافة في أولاد علي من فاطمة، وأن الخلفاء الذين عاصروه قد اغتصبوا الأمر منهم، وكانوا لهم ظالمين».[3] لكن حب آل بيت رسول الله يجب أن لايرتبط ولايترافق بالتعصب لهم وظن السوء بغيرهم.

---

(1) أبو زهرة، محمد. الامام زيد، حياته وعصره - أراؤه وفقهه (القاهرة: دار الفكر العربي، [د.ت])، ص١٩٠.

(2) م.ن، ص١٩٢.

(3) أبو زهرة. الامام أبو حنيفة، حياته وعصره - آراؤه وفقهه، (القاهرة: دار الفكر العربي، [د.ت])، ص١٦٥.

ج- شروط وصفات الحاكم عند الامام مالك:

كان الامام مالك قليل الكلام فيما لايتصل بالفقه أو الحديث، وذلك لم يؤثر عنه تفصيل في مسألة الخلافة... «ومن المؤكد أنه لايرى أن تقتصر الخلافة على البيت الهاشمي، أو العلوي.. وإذا كان لايرى الخلافة مقصورة على البيت العلوي أو الهاشمي، فلم يبق إلا أنه يراها عامة لايختص بها قبيل ولا طائفة. بل هي للعدل القادر الذي يختاره جماعة المسلمين».[1]

د- شروط وصفات الحاكم عند الامام الشافعي:

لقد كان «يرى أن الامامة في قريش كما يرى جمهور المسلمين».. ويظهر أنه لم يشترط سوى القرشية».[2]

هـ- شروط وصفات الحاكم عند الامام أحمد بن حنبل:

لم يصرح بأن الخلافة تكون في بيت من بيوت العرب، أو قبيلة من قبائله، كما أن مجموع كلامه يدل على أن الناس إن بايعوا بأي حال، كان المبايع خليفة، ولو كان من غير العرب، أو غير قريش، فطاعته واجبة، «إلا أنه يرى أن قريشاً أولى بالخلافة من غيرهم، لأن الناس نهوا عن التقدم عليهم فيها، وهو نهي عام يعم، ولا يخص، ولكنه يرى جواز إمامة المفضول».[3]

و- شروط وصفات الحاكم عند الخوارج:

يمثل الخوارج في الشروط التي وضعوها لاختيار الحاكم، تجربة ديمقراطية متقدمة في الفكر السياسي الاسلامي، لأنهم يرون أن الخلافة حق لكل مسلم مادام كفؤاً لها، لا فرق بين قرشي وغير قرشي، أو بين عربي وأعجمي أو بين بيت وآخر، ويختار الخليفة اختياراً ضمن شروط الاسلام والعدل، بدل الحرية والعروبة

---

[1] أبو زهرة. الامام مالك، حياته وعصره - آراؤه وفقهه، (القاهرة: دار الفكر العربي، [د.ت])، ص١٦٢.

[2] أبو زهرة. محمد. الامام الشافعي، ص١٢١.

[3] أبو زهرة. الامام مالك. ص١٥٢-١٥٣.

(القرشية).

«إذ جوزوا أن تكون الامامة في غير قريش، وكل من نصبوه برأيهم وعاشر على مامثلوا له من العدل واجتناب الجوركان إماماً وإن غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله، وجوزوا أن لايكون في العالم إمام أصلاً. وإذا احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً، أو نبطياً، أو قرشياً».[1]

لقد كانوا يفضلون الحاكم من لا عصبة له، من أجل سهولة عزله أو قتله.

ثانيا: شروط وصفات الحاكم عند المفكرين:

آ- عند الماوردي:

يحدد الماوردي شروطاً سبعة يجب توفرها في الحاكم أو من يرشح لشغل هذا المنصب الأعلى في الأمة هي:

١- العدالة على شروطها الجامعة.

٢- العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.

٣- سلامة الحس والسمع، والبصر، واللسان ليصح معها مباشرة مايدرك بها.

٤- سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

٥- الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

٦- الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة (حماية دار الاسلام) وجهاد العدو.

٧- النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الاجماع عليه؟!.[2]

---

[1] الشهرستاني. الملل والنحل، ج١، ص١١٦.

[2] الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب. الأحكام السلطانية، والولايات الدينية (القاهرة، المكتبة التوفيقية، [د.ت])، ص٦.

ب- عند ابن خلدون:

لقد حدد ابن خلدون أربعة شروط يجب توفرها في الحاكم وهي:

١- العلم

٢- العدالة

٣- الكفاية

٤- سلامة الحواس والأعضاء ممايؤثر في الرأي والعمل

واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي.[1]

ج- عند الغزالي:

حدد الغزالي صفات الحاكم في عشر صفات، ست منها خلقية لاتكتسب، وأربع منها مكتسبة وهي مرتبة كالآتي:

١- البلوغ: فلا تنعقد الامامة لصبي لم يبلغ.

٢- العقل: فلا تنعقد لمجنون.

٣- الحرية: فلا تنعقد الامامة لرقيق.

٤- الذكورية: فلا تنعقد الامامة لامرأة وان اتصفت بجميع صفات الكمال وخصال الاستقلال.

٥- نسب قريش، لابد منه لقوله عليه الصلاة والسلام: الأئمة من قريش؟!

٦- سلامة حاسة السمع والبصر.

تلك الصفات الستة هي صفات غريزية، أما الصفات الأربع المكتسبة فهي:

١- النجدة.

٢- الكفاية

٣- العلم

---

[1] ابن خلدون. المقدمة، ص١٩٣.

٤- الورع.[1]

د- شروط وصفات الحاكم عند الفارابي:

لقد حدد الفارابي خصالاً وشروطاً معينة يجب توفرها في رئيس المدينة الفاضلة، ويرى أن جميع هذه الصفات فطرية وهي:

١- أن يكون تام الأعضاء.

٢- أن يكون بالطبع جيد الفهم والتصور.

٣- أن يكون جيد الفطنة ذكياً.

٤- أن يكون حسن العبارة

٥- أن يكون محباً للتعليم والاستفادة منقاداً له.

٦- أن يكون غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح...

٧- أن يكون محباً للصدق وأهله مبغضاً للكذب وأهله.

٨- أن يكون كبير النفس محباً للكرامة.

٩- أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده.

١٠- أن يكون محباً للعدل وأهله ومبغضاً للجور والظلم وأهله.

١١- أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل جسوراً عليه، مقداماً غير خائف، ولا ضعيف النفس.[2]

هذه صفات رئيس المدينة الفاضلة عند الفارابي، وكأن هذا الرئيس خلق نسيج وحده، فمن المستحيل وجود شخص تتوفر فيه هذه الصفات جميعها. وبالتالي كأننا أمام صورة مماثلة لحاكم مدينة الحكمة في جمهورية أفلاطون، ويبدو

---

(1) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. فضائح الباطنية (الكويت: دار الكتب الثقافية، [د.ت])، ص١٨٠، ١٨١.

(2) الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان. آراء أهل المدينة الفاضلة، صفحات: ١٠٥-١٠٦-١٠٧ بتصرف.

أثر فكر أفلاطون السياسي واضحاً عند الفارابي، ويمكننا المقارنة من خلال استعراض صفات الحاكم الفيلسوف عند أفلاطون في جمهوريته الفاضلة:

١- حب المعرفة، فأرباب الفطرة الفلسفية هائمون بكل أنواع المعارف لتتجلى لهم حقيقة هذا الوجود الخالد الذي لايتغير زماناً ومكاناً.

٢- حب الوجود الخالد حباً كلياً.

٣- حب الصدق ومقت الكذب، فالصدق قرين الحكمة.

٤- هجرة اللذات الجسدية، والهيام باللذات العقلية.

٥- شدة القناعة والعفة والبعد عن الطمع.

٦- نبذ كل ماهو وضيع وشرير، ونبذ الجبن.

٧- الزهد في الحياة الحاضرة، وعدم هياب الموت.

٨- سرعة الحاضر في التحصيل، والتمييز بذاكرة حافظة.

٩- محبة الاتساق والجمال.[١]

---

(١) أفلاطون: الجمهورية، ترجمة حنا خباز، (بيروت: دار الكاتب العربي، [د.ت]) ص٢٥٥ بتصرف.

المبحث الثالث

صفات وشروط الحاكم بين الواقع والنص

لابد من تساؤلات هامة نطرحها في البداية وهذه التساؤلات هي:

- هل صفات وشروط الحاكم النظرية التي ذكرت سابقاً واقعية وقابلة للتطبيق في الحياة السياسية عند المسلمين؟

- هل حاولت النصوص إثبات مدى شرعية الحاكم، أم كانت تبريراً لسياسة الأمر الواقع؟

- هل تنازل المنظرون السياسيون عن بعض هذه الشروط في حال عدم تحققها في الحاكم؟.

إن صفات الحاكم في الاسلام مستمدة من صفات وشمائل رسول الله ﷺ كرجل دولة وسياسة في العهد الراشدي ومن تجارب الأمم الأخرى، كاليونان والفرس فيما تلاه من عصور. إلا أن صفات الحاكم كانت مثالية، وقريبة من صفات رسول الله ﷺ، كصاحب رسالة، وليس كقائد سياسي، وهذا في حد ذاته تطرف، وبعد عن الواقعية، واقعية الحاكم الذي يصيب ويخطىء ويغضب، ويفرح، ويحب، ويكره.. الخ.

على الرغم من أن رسول الله ﷺ حاول جاهداً، لإزالة التقديس عن شخصه الدنيوي، وذلك فيما لا وحي فيه، «أنتم أعلم في أمور دنياكم، ما أنا إلا ابن امرأة كانت تأكل القديد..، سلوكه الشخصي الحياتي، غزوة الخندق، غزوة بدر.. الخ»

فإن مقياس صحة الحكم وشرعيته، كانت تقاس، وتقارن بما كان في عهد الرسول والخلفاء الراشدين.

من خلال استعراض صفات وشروط الحاكم في المبحث الثاني، من هذا الفصل، نجد أن هناك خلافاً حول بعض الصفات «النسب – الذكورة – العلم..» لذا لابد من قراءتها ثانية بشيء من التفصيل.

١- شروط النسب:

لقد ثار جدل كبير حول هذا الشرط، وبسببه اختلفت الأمة حول من يكون خليفة لرسول الله ﷺ بعد أن توفاه الله ولايزال هذا الخلاف مستمراً حتى الآن، وسيستمر مستقبلاً، لأن الماضي يعيش في الحاضر، كلاً أو جزءاً وهذا الماضي لم تقل فيه الكلمة الفصل إلى الآن.

لعل ماحدث في سقيفة بني ساعدة، إثر وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، «من حوار، وجدل بين الأنصار والمهاجرين، حول من هو الخليفة للرسول، فمن، ترشيح سعد بن عبادة لهذا المنصب، ثم اعتراض المهاجرين، فاقترح الأنصار لتداول السلطة بينهم وبين المهاجرين: منا أمير ومنكم أمير».[١]

ثم يقف أبو بكر الصديق خطيباً في القوم قائلاً: «... وإن العرب لاتعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش».[٢]

يلاحظ أن أبا بكر لم يورد نص الحديث النبوي الذي يشتمل على عبارة الأئمة من قريش. فلو كان هناك نص صحيح وصريح في هذه القضية لما أثيرت أصلاً ولكفى الله المؤمنين شر الاختلاف والفرقة.

إلا أن البخاري يروي حديثاً عن معاوية بن أبي سفيان، وفيه دفاع عن

---

[١] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧) ج٢، ص٢٤١، ٢٤٢.

[٢] م.ن، ج٢، ص٢٣٥.

شرعية ملكه، كونه قرشياً.

«كان محمد بن جبير بن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية، وهو عنده في وفد من قريش، أن عبد الله بن عمر وابن العاص، يحدث أنه سيكون ملك قحطاني.

فغضب معاوية فقام فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنه بلغني أن رجالاً منكم يتحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولاتؤثر عن رسول الله ﷺ فأولئك جهالكم. فإياكم والأماني التي تضل أهلها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أن هذا الأمر في قريش لايعاديهم أحد إلاّ كبه الله على وجهه ماأقاموا الدين».[1]

إن هذا الحديث يثير التساؤل عدا كون الرواي حاكماً، يراه بعض المسلمين متغلباً، وباغياً، بل لأنه يتعارض من حيث المضمون مع آيات قرآنية، وأحاديث نبوية أخرى.

«فعن يحيى بن حصين قال سمعت جدتي تحدث أنها سمعت النبي ﷺ يخطب في حجة الوداع وهو يقول... ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا».[2]

ولو أن النسب له هذه الأهمية العظمى، لما حذر رسول الله ﷺ آل بيته، بأنه لايغني لهم من الله شيئاً. كل رهين عمله وكسبه. «فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لما نزلت وانذر عشيرتك الأقربين. قام رسول الله ﷺ على الصفا فقال: يافاطمة بنت محمد، ياصفية بنت عبد المطلب، يابني عبد المطلب لاأملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ماشئتم».[3]

إن رسول الله ﷺ ينذر عشيرته الأقربين، أن الله لاينظر إلى أنسابكم، ولا إلى

---

(1) رواه البخاري.

(2) رواه الشيخان.

(3) رواه مسلم.

صوركم، إنما ينظر إلى أعمالكم، ومدى فائدة هذا العمل على المستوى الاجتماعي.

وقال تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ...﴾.[1]

لكن هناك أحاديث أخرى وضعت شروطاً محددة لخلافة القرشي، متمثلة بالعدل، والرحمة، والوفاء بالعهد.. الخ.

فعن «سيار بن سلامة أبي المنهال ﷺ قال: دخلت مع أبي على أبي برزة، وإن في أذني لقرطين وأنا غلام. قال: قال رسول الله ﷺ: «الأمراء من قريش ثلاثاً: ماحكموا فعدلوا، واسترحموا فرحموا، وعاهدوا فوفوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».[2]

وعن أبي مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ لقريش: إن هذا الأمر فيكم وأنتم ولاته حتى تحدثوا أعمالاً فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شرار خلقه فالتحوكم كما يلتحي القضيب».[3]

إن النسب القرشي، يصير هامشياً، إذا لم يقم المنتسب إليه الدين، عدلاً، ورحمة، ووفاء.

لقد علل ابن خلدون أهمية أن يكون نسب الحاكم من قريش «.. ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي، ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي ﷺ كما هو في المشهوروإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصل، لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية، كما علمت فلابد إذن

---

[1] سورة المؤمنون: ١٠١.

[2] الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (بيروت: مؤسسة المعارف، ١٩٨٦) ج٥، ص١٩٦ رواه البزار والطبراني.

[3] المنذري. الترغيب والترهيب، تحقيق مصطفى عمارة (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧) ج٣، ص١٧١. رواه البزار والطبراني.

من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها وينتظم حبل الألفة فيها وذلك أن قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم... فلو جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم..».[1]

وفي التجارب السياسية المعاصرة يمكن أن يعتبر نسب الحاكم، حزبه السياسي الذي يشكل الأغلبية الشعبية.

إلا أن للخوارج رأياً سديداً، في قضية النسب القرشي للحاكم فهم «يرون أن الخلافة حق لكل مسلم مادام كفؤاً لها، لافرق بين قرشي، وغير قرشي،... ويختار الخليفة اختياراً ضمن شروط الاسلام، والعدل بدل الحرية، والعروبة (من قريش)... إذا جوزوا أن تكون الامامة في غير قريش، وكل من نصبوه برأيهم وعاشر الناس على مامثلوا له من العدل واجتناب الجور كان إماماً... فإذا غير السيرة، وعدل عن الحق، وجب عزله أو قتله، وجوزوا أن لايكون في العالم إمام أصلاً، وإذا احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حراً، أو نبطياً، أو قرشياً.[2]

إن تفضيلهم الحاكم الذي لا عصبة له، من أجل سهولة عزله، أو تغييره، أو قتله، وبذلك ضمان لعدم استبداد الحاكم.

هكذا نجد أن الصيغة العملية لسلوك الخوارج هي التي ميزتها عن غيرها من الفرق الاسلامية. لأنها لم تجد هذه الفرقة الوقت والهدوء والاستقرار، ومن يحاورها من الحكام، الذين جندوا كل قوتهم لإبادة هؤلاء المعارضين المسلحين، لذا لم يكن لدى الخوارج فلسفة سياسية نظرية كما عند المعتزلة.

أما الشيعة «فيرون أن الامامة محصورة في بيت آل رسول الله، وصاية ونصاً.

---

[1] ابن خلدون. المقدمة، ص١٩٥.

[2] الشهرستاني. الملل والنحل، ص١١٦.

في أولاد علي وفاطمة، ويرى قسم آخر، شرط النسب في بيت آل رسول الله مرتبط بعلي ﷺ، ولو من غير فاطمة».[1]

٢- الذكورة:

من صفات وشروط الحاكم في الاسلام، أن يكون ذكراً، لما لهذا المنصب من أعباء ثقال، ولورود النص عن رسول الله ﷺ: حيث قال: «ماأفلح قوم ولوا عليهم امرأة».[2]

لقد قال رسول الله ﷺ هذا الحديث، عندما أسيء استقبال سفير الرسول من قبل بنت كسرى عندما تولت أمر قومها، بعد وفاة أبيها. «ولقد عرف علماء أصول الفقه قواعد للاستدلال جاء فيها:

أن العبرة لخصوص السبب، لا لعموم اللفظ، أي أن الحكم الوارد في الحديث النبوي لايتعدى الواقعة التي قيل بسببها. وإذا كان لفظ الحديث عاماً، فلا يعني هذا أن يكون حكمه أيضاً عاماً، وينبني على ذلك أن الحديث لاينهض حجة في منع المرأة من تولي رئاسة الحكومة».[3]

ومن حجج بطلان رئاسة المرأة عدم جواز إمامة المرأة في الصلاة، وأن عدم جواز إمامتها في الخلافة أولى، لأن من واجبات الخليفة أن يؤمهم في الصلاة، «فقد ردوا عليها بأن الصلاة عمل ديني خالص، بينما الامامة عمل ديني سياسي، والفارق بينهما واضح، ومايمنع أحدهما لايصح أن يكون دليلاً على منع الآخر».[4]

على الرغم من أن إمامة الحاكم في الصلاة أصبحت نظرية بحتة، لأن هناك من

---

[1] م.ن، ج١، ص١٤٦.

[2] رواه البخاري، وأحمد، والترمذي، والنسائي.

[3] القاسمي، ظافر. نظام الحكم في الشريعة والتاريخ، (بيروت: دار النفائس، ١٩٧٤) ط١، ص٣٤٢.

[4] م.ن، ص.ن.

يوم الناس بدلاً عنه، «فإن ابن تيمية يجيز إمامة المرأة في الرجال، إذا كانت أقرأهم، على أن تقف خلف الصفوف معتمداً في هذا رأياً للإمام أحمد بن حنبل».[1]

لقد سجل التاريخ، تجربة امرأة مسلمة، في الحكم بطريقة مباشرة، لا من وراء الرجل. إنها «أروى بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي، السيدة الحرة، وتنعت بالحرة الكاملة، وبلقيس الصغرى. ملكة حازمة مدبرة يمانيه.. ترفع إليها الرقاع، ويجتمع عندها الوزراء، ويدعى لها على منابر اليمن، فيخطب أولاً للمستنصر (الفاطمي)، ثم للصليحي، ثم للحرة، فيقال: اللهم أدم أيام الحرة الكاملة السيدة كافلة المؤمنين..».[2]

وتنفرد فرقة الشبيبة وهي من فرق الخوارج برأي يخالف جمهور الأمة في خلافة، وإمامة المرأة، «فأجازوا إمامة المرأة منهم إذا قامت بأمورهم وخرجت على مخالفيهم، وزعموا أن غزالة أم شبيب كانت الامام بعد قتل شبيب إلى أن قتلت واستدلوا على ذلك بأن شبيباً لما دخل الكوفة أقام أمه على منبر الكوفة حتى خطبت».[3]

إن الدين الإسلامي أعطى للمرأة حقوقاً، متساوية مع الرجل، مادامت متساوية معه في التكاليف، إلا أنه أصابها تقزيم حضاري على مدى قرون عديدة، وبالرغم من ذلك مازالت المرأة المسلمة تملك الينابيع العذبة التي تنتظر الظرف الملائم لتفجرها، وبذلك يستفيد منها الجميع.

إن الإبعاد السياسي للمرأة عند المسلمين، لم يعتمد على نص صريح في

---

(1) ابن تيمية. القواعد النورانية الفقهية، تحقيق محمد حامد الفقهي، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥١) ط١، ص٧٨.

(2) الزركلي، خير الدين. الأعلام، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠) مج١، ص٢٨٩-٢٩٠.

(3) البغدادي، عبد القاهر بن طاهر. الفرق بين الفرق (بيروت: دار الجيل، ودار الآفاق الجديدة، ١٩٨٧) ص٨٩-٩٠.

القرآن الكريم، يحرمها حقها السياسي، فلم يرد إلا حديث (ماأفلح قوم ولوا عليهم امرأة) ومالهذا الحديث من خلفيات. عندما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولم يكتفوا بذلك بل حرموها من حضور المساجد في الجمعة والجماعة.

أما القرآن الكريم فقد أورد نماذج متعددة لتفوق المرأة على الرجل في سعة النظرة، ودقة الفكر ووضوح الرؤية، فحيناً أورد تجربتها كحاكمة، وحيناً آخر، معترضة على الظلم والعدوان كزوجة لأكبر طاغية في التاريخ. بينما سكت الرجال لقرون عديدة على هذا الظلم.

ففي النموذج الأول وردت قصة ملكة سبأ في حوارها مع قومها عند وصول رسالة إليها، فقد جمعت قومها لتستشيرهم في الموقف الذي يجب أن تتخذه من تهديد سليمان لها ولقومها ونوعية الرد الذي ترد به على الرسالة ولعل هذا اللجوء إلى الاستشارة يوحي بوجود عقل راجح تتميز به شخصيتها، وهو مايجعلها لاتعطي الرأي الذي تملك إقراره من موقفها كملكة، إلا بعد استشارة أهل الرأي من قومها فيه. قال تعالى: ﴿قالت ياأيها الملأ إني ألقي إليَّ كتاب كريم ۞ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ۞ ألا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين ۞ قالت ياأيها الملأ أفتوني في أمري ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾.[1]

وهكذا أرادت من رجال قومها أن يقدموا لها الرأي السياسي في المشكلة موضوع الرسالة الخطيرة، لكن ردهم كان دليل ثقة برجاحة عقلها وصواب رأيها وأنهم مستعدون لما تأمرهم بتنفيذه، قال تعالى: ﴿قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ۞ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ۞ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾.[2]

---

[1] سورة النمل: ٢٩-٣٢.

[2] سورة النمل: ٣٣-٣٥.

لقد كان رأيها عاقلاً متزناً يرتكز إلى حسابات دقيقة فتوصلت إلى الحل الأفضل للمشكلة التي لاتكون القوة السبيل الأمثل لعلاجها.

وفي النموذج الثاني وردت قصة امرأة فرعون نموذج لامرأة تعيش في القمة من الجاه والترف، وعلى الرغم من ذلك فقد تمردت على ذلك كله ورفضت، كل ماحولها، مؤثرة الحياة الآخرة على دنيا فرعون واستبداده، الذي أسكت أجيالاً من الرجال والنساء واستعبدهم. فكانت قدوة ونموذج للمؤمنين والمؤمنات للتمرد على الظلم بكل إغراءاته وملذاته، قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله، ونجني من القوم الظالمين ۞ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها، فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾.[1]

إن إبعاد المرأة عن الساحة السياسية والاجتماعية والفكرية ليس من أصول الإسلام في شيء بل هو من مخلفات انحطاط المسلمين عندما جعلوها دمية يلعبون بها، بالرغم من ذلك فقد تتلمذ على أيدي النساء العالمات كثير من الفقهاء والمحدثين.

٣- العلم:

إن توفر شرط العلم في الحاكم، عند الشيعة يعتبر من أهم صفات الامام، بينما نجد هذا الشرط عند أهل السنة، من الشروط المكملة، ومن شروط الأفضلية، فلا يمكن للحاكم مهما كان عالماً أن يلم بجميع أنواع المعارف. فهذا رسول الله ﷺ يستشير أصحابه، وهؤلاء الخلفاء الراشدون يستشيرون علماء الأمة، ورجالها، فكان لكل خليفة مايشبه المجلس الاستشاري، ومن أسباب الاقامة الجبرية لصحابة رسول الله ﷺ في المدينة في عهد عمر بن الخطاب، كونهم المستشارين من قبل

---

[1] سورة التحريم: ١١، ١٢.

الخليفة فيما يحل بالأمة مالا سابقة له، وخشية عليهم، ومنهم، عليهم لأن الدنيا فتحت أمام المسلمين، ومنهم خوفاً من العامة الذين أسلموا في البلاد المفتوحة، أن يتعلقوا بالأشخاص دون المبدأ، وهذا ماحدث في عهد خلافة عثمان بن عفان ﷺ، ومابعد.

وكلما كان الحاكم حليماً، عاقلاً، تهمه عاقبة الأمور، ويريدها أن تكون في صالح الجماعة، كان مستشيراً أصحاب العلم والاختصاص، قبل إتخاذه أي قرار هام له أثر على حاضر ومستقبل الجماعة. وبذلك يجنب الأمة، مخاطر القرارات العشوائية الخاطئة. فساحة المجتمع يجب ألا تكون مجالاً للتجريب، بين الصواب والخطأ، وتحت رحمة نزوة حاكم طائش.

٤- العدالة:

يعتبر العدل من أهم الشروط الواجب توفرها في الحاكم. «فالعدالة جوهر الخلافة، ولبها، والعدالة التي تطلب من الامام الأعظم لتشمل أنواع العدالة المختلفة، بحيث يكون هو عدلاً في ذاته، لايؤثر قرابة ولايقدم أحداً لهوى، ولايؤثر ذا محبة، ولايبعد ذا بغض،.. وعدالة الامام توجب عليه أن يولي الأمور من يصلح لها، ويوسدها لأهل العدالة والرفق، ومن عدالة الامام أن يعامل الأعداء بالعدل، فالعدالة الاسلامية تعم ولاتخص، تعم الولي والعدو على السواء».(١)

قال تعالى: ﴿.. ولايجرِ منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى...﴾.(٢)

إن رسالة الاسلام تتجلى في سعيه إلى نشر العدل، وإزالة الظلم عن الآخرين،

---

(١) أبو زهرة، محمد. تاريخ المذاهب الاسلامية في السياسة والعقائد، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٩)، ص٩٠، ٩١.

(٢) سورة المائدة: ٨.

حتى لو كان الآخر كافرا، لأن الإسلام لم يأت ليزيل الكفر، بل ليزيل الظلم. ولذلك فهو رسالة ودين المستضعفين، والمغلوبين في الأرض.

ولقد ربط بعض الفقهاء بين الظلم وزوال الدول، وبين العدل واستقرار واستمرار الدول بغض النظر عن دين هذه الدول.

لهذا يروى: «إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولاينصر الدولة الظالمة، ولو كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولاتدوم مع الظلم والإسلام».[1]

أما عمر بن الخطاب، ومايمثله من نموذج إنساني في تحقيق العدالة، فقد بين صفات الحاكم العادل باللين من غير ضعف فلا يصل إلى درجة لا يهاب، فلا تنفذ أحكامه، فتفقد الجماعة انضباطها، وبالقوي من غير عنف، فلا يصل إلى درجة الحاكم المستبد، الظالم.

إن التوفيق بين اللين والقوة، وبين الضعف والعنف، يحتاج إلى قدرات إنسانية مميزة، «لايصلح لهذا الأمر إلا اللين من غير ضعف، القوي من غير عنف».[2]

يبدو من رأي عمر بن الخطاب ﷺ، أنه يدعو إلى وجود القوي العادل وهذه الصورة للحاكم تميز الفكر السياسي الاسلامي قديماً وحديثاً وبجميع فرقه، لقد بعث عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري يستشيره فيمن يستعين به في القيام بأمر الدولة، فكتب إليه الحسن البصري يقول: «أما طالب الدنيا فلا ينصح لك، وأما طالب الآخرة فلا يرغب فيك..».[3] وعلى الرغم من أن الحسن كان من الصنف الثاني، إلا أنه رأى واجباً عليه أن يحدد صفات الامام العادل، فكتب إليه

---

[1] ابن تيمية، وظيفة الحكومة الاسلامية، ص٨١.

[2] ابن عبد ربه، أحمد بن محمد. العقد الفريد (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٦)، ج١، ص٢٤.

[3] أبو حامد الغزالي. التبر المسبوك في نصيحة الملوك، مترجم عن الفارسية، راجعه سامي خضر (بيروت: دار ابن زيدون، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٧)، ص٧٤.

يقول: «اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الامام العادل قوام كل مائل، وقصد كل حائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والامام العادل ياأمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها..، والامام العادل ياأمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده.. وكالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها،... والامام العادل ياأمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده.. فلا تكن ياأمير المؤمنين، فيما ملكك الله عز وجل كعبد إئتمنه سيده، واستحفظه ماله، وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله، واعلم ياأمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث، والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها!؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟.

وأذكر ياأمير المؤمنين الموت ومابعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم ياأمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً، فتزود له بما يصحبك، ﴿يوم يفر المرء من أخيه ۞ وأمه وأبيه ۞ وصاحبته وبنيه﴾.[1] وأذكر ياأمير المؤمنين إذا بعثر مافي القبور، وحصل مافي الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالآن ياأمير المؤمنين وأنك في مهل، وقبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لاتحكم ياأمير المؤمنين بحكم الجاهلين، ولاتسلك بهم في سبيل الظالمين، ولاتسلط المستكبرين على المستضعفين فأنهم لايرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزارهم مع أوزارك، وتحمل أثقالاً مع أثقالك، ولايغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بذهاب طيباتك في آخرتك، ولاتنظر إلى قدرتك

---

[1] سورة عبس: ٣٤-٣٦.

اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً، وأنت مأسور في حبائل المـوت، وموقـوف بـين يدي الله في مجمع الملائكة والنبين والمرسلين.. وإنـي يـاأمير المؤمنـين، وإن لـم أبلـغ بعظتي مابلغه أولو النهي من قبلي لـم آل من شفقة ونصح، فأنزل كتابي كمـداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة، لما يرجو لـه مـن العافيـة والصحـة.. والسـلام عليـك يأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».[1]

في رسالة البصري، لعمر بـن عبـد العزيـز، عـدة محـاور، لخـص فيهـا الحسـن البصري أهمية العدل، ووجود الامـام العـادل للمجتمـع الانسـاني، فمثلـه بـالراعي الشفيق على إبله حيناً، وبالأب الحاني على ولده حيناً آخر، ثم مثله بـالأم الشـفيقة البرة الرفيقة بولدها تارة، وبالقلب وأهميته للجوارح تارة أخرى... ثم بين وظيفـة الحاكم في رعاية مصـالح النـاس الماليـة، والاجتماعيـة، وأن يكـون أمينـاً عليهـا، لا سارقاً لها. أما مهمة الحاكم في إقامة الحدود، فذاك أمر مسلم به، لكن المشـكلة أن بعض الحكام يأتون مايوجب الحد، وبـدل أن يكـون في القصـاص حيـاة الجماعـة، أصبح الحاكم الظالم مصدر القلق والخوف والإبـادة، باسـتباحة دمـاء رعيتـه، ممـن يعارضه ولا يرضى بسلوكه.

ثم ينتقل إلى الترهيب من الموت وأنه لابد من الوقوف يوم القيامـة أمـام اللـه ليحاسب عن كل صغيرة وكبيرة، وفي هذا الجو من الـترهيب، يحـذره مـن حاشـية السوء، واستعمال الظالمين. لأنه سيحمل أوزارهم مع وزره.

ويصف الحسن البصري نصيحته هذه بالدواء الكريه، لأن النفس تعافـه ومـن يرغب في الشفاء والصحة فلا بد له من أن يذوق مرارة الدواء.

لقد تنازل الفقهاء كثيراً في شروط وصفات الحـاكم، بدايـة في الاقـرار بعـدم واقعية هذه الشروط، ثم بالتنظير السياسي للأمر الواقع.

---

[1] ابن عبد ربه. العقد الفريد ج١، ص ص: ٣٤-٣٦.

المبحث الرابع

إمامة المفضول مع وجود الفاضل

لقد وضع الفقهاء، والمفكرون السياسيون شروطاً، وصفات للخليفة، لايمكن تحقيقها، لأنها صفات مثالية، أقرب ماتكون للنبوة منها للسياسة، ولو أنهم وضعوا شروطاً واقعية، إنسانية الأبعاد، لما وصلوا إلى مأزق عدم إمكانية اجتماع كافة الشروط في شخص واحد، وعلى مستوى الأمة.

لذا وجدوا أن المخرج من هذا المأزق هو القول بنظرية إمامة المفضول مع وجود الفاضل، نتيجة لظروف سياسية معينة، منعت الفاضل من الوصول إلى الحكم.

«... فلو تكافأ إثنان تقدم لها أسنهما، فإن بويع أصغرهما سناً جاز، ولو كان أحدهما أعلم، والآخر أشجع روعي في الاختيار مايوجبه حكم الوقت، فإن كانت الحاجة إلى فضل الشجاعة أدعى لانتشار الثغور وظهور البغاة، كان الأشجع، وإن كانت الحاجة إلى فضل العلم أدعى بسبب سكون الدهماء وظهور أهل البدع كان الأعلم أحق..».[1]

لقد كان الفقهاء أكثر واقعية عندما فرقوا بين صلاح الحاكم وبين مقدرته على قيادة الجماعة «.. إن اجتماع القوة والأمانة في الناس قليل، ولهذا كان عمر بن

---

[1] الماوردي. الأحكام السلطانية، ص٧.

الخطاب ﷺ يقول: اللهم أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة. فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها، فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعها لتلك الولاية، وأقلهما ضرراً فيها، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أميناً».[1]

لكن ماهو موقف الفقهاء والمفكرون، وبعض الفرق من هذه القضية؟

١- راي الامام زيد بن علي ﷺ:

يرى الامام زيد جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل «.. كذلك يجوز أن يكون المفضول إماماً، والأفضل قائم فيرجع إليه في الأحكام، ويحكم بحكمه في القضايا».[2] وفي هذا الرأي تصريح مباشر من قبل الامام زيد بأن علياً كرم الله وجهه ورضي الله عنه أفضل من الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لمواقفه الجلى في الاسلام، إلا أنه لم يصرح بأن تلك الأفضلية لقرابته من الرسول ﷺ، فهو المستشار لكليهما، في القضايا التي تحتاج إلى علم وفقه، حتى ذهب مثلاً في القضايا التي لاتجد حلاً: قضية ولا أبا الحسن لها.

«ومع أن علياً أفضل فليست الأفضلية ملازمة لمنصب الخلافة، لأن الأمر في الخلافة ليس هو اختيار الأفضل بل هو اختيار الأقدر على حمل العبء، الذي يطيعه الناس، ولايثيرون لتوليه الفتنة».[3]

وبهذا خالف رأي الشيعة التي ترى غير ذلك. «فقول الامام زيد بإمامة المفضول يفهم من فحوى كلامه أن يكون في ذلك مصلحة محققة للمسلمين وعدالة محققة..».[4]

---

[1] ابن تيمية. السياسة الشرعية. ص١٦-١٧.

[2] الشهرستاني. الملل والنحل، ج١، ص١٥٥.

[3] أبو زهرة، الامام زيد. ص١٨٩.

[4] م.ن. ص١٩١.

لكن الامام زيداً حدد صفات الفاضل بأن «يكـون فاطميـاً، شـجاعاً، سـخياً، خرج بالإمامة..».[1]

٢- راي الامام جعفر الصادق ﷺ:

«لقد قال لرهط من المعتزلة: إن أبي حدثني وكان خير أهل الأرض وأعلمهـم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: من ضرب النـاس بسـيفه، ودعاهم إلى نفسه، وفي المسلمين من هو أعلم منه، فهو ضال متكلف.

هذا الحديث الذي رواه الامام جعفر عن أبيه، يدل على أنهما - هـو وأبيـه - يريان أن الخليفة المختار يجب أن يكون أعلم المعروفين الظاهرين.[2]

ومن هذا الحديث تبين لنا موقف الامام جعفـر السياسـي مـن الحـاكم المتغلـب بأنه غير شرعي، إلا أن سلوك الامام جعفر ينطبق على ماروي عنه أنه قـال: التقيـة ديني ودين آبائي. فالامام جعفر الصادق، لايجيز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، ولو عدنا لشروط وصفات الحاكم لوجدنا أن نسـب الحـاكم متحقـق، لأن الامـام يجب أن يكون من آل بيت رسول الله عليه الصلاة والسـلام، ومـن علـي وفاطمـة رضي الله عنهما، أما عدالة الامام فما لاشك فيه أنـه يجـب أن يكـون عـادلاً، أمـا شرط العلم فيجب أن يكون أعلم الموجودين، وبشرط العلم تنحو نظرية الشيعة من التناقض الداخلي، لأن الحاكم مادام فاضلاً فيجب ألا يكون في الأمة خيراً منه.

٣- راي الامام أبي حنيفة ﷺ:

«يرى أبو حنيفة أن الخلافة لاتتم إلا بانتخاب سابق من المؤمنين، وبيعة كاملة، فالخلافة عنده ليست بوصاية، ولايكون خليفة من يفرض نفسه على المسلمين، وإن

---

[1] الشهرستاني. الملل والنحل، ج١، ص١٥٤.

[2] أبو زهرة، محمد. الامام جعفر الصادق، ص٢١٣.

خضعوا بعد ذلك، أو ارتضوه».[1]

٤- آراء الائمة: مالك، والشافعي، وابن حنبل رضي الله عنهم:

لقد قالوا بجواز إمامة الحاكم المتغلب - كما سيمر معنا لاحقاً - فالأولى بجواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل.

٥- راي الباقلاني:

يرى الباقلاني أن هناك دليلين:

الدليل الأول: يوجب اختيار الفاضل.

الدليل الثاني: يجيز العقد للمفضول مع وجود الفاضل.

فيقول: «... وأما مايدل على أنه يجب أن يكون أفضلهم، متى لم يكن هناك عارض يمنع من إقامة الفاضل، فالأخبار المتظاهرة عن النبي ﷺ، في وجوب تقدمة الفاضل، منها: قوله عليه الصلاة والسلام: «يؤم القوم أفضلهم، وقوله: أئمتكم شفعاؤكم فانظروا بمن تستشفعون، وقوله: من تقدم على قوم من المسلمين يرى فيهم من هو أفضل منه، فقد خان الله ورسوله والمسلمين،... وأما مايدل على جواز العقد للمفضول وترك الفاضل لخوف الفتنة، والتهارج، فالامام إنما ينصب لدفع العدو، وحماية البيضة، وسد الخلل، وإقامة الحدود، واستخراج الحقوق، فإذا خيف الهرج، والفساد، والتغالب، وترك الطاعة، واختلاف السيوف، وتعطيل الأحكام والحقوق، وطمع عدو المسلمين في اهتضامهم، وتوهين أمرهم، صار ذلك عذراً واضحاً في العدول عن الفاضل إلى المفضول».[2]

---

[1] أبو زهرة، محمد. الامام أبو حنيفة، ص١٦٥.

[2] الباقلاني، محمد بن الطيب بن محمد. التمهيد في الرد على الملاحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة. (القاهرة: [د.ن]، ١٩٤٧)، ص١٨٠.

٥- راي ابي الحسن الاشعري:

لقد حاول الأشعري أن يضع حداً فاصلاً بين الخلافة والملك عن طريقة اختيار الفاضل في حال الخلافة، والمفضول في حال الملك. وعلى هذا المقياس فالحكام بعد الخلفاء الراشدين ملوك وليسوا خلفاء.

«.. يجب أن يكون الامام أفضل أهل زمانه في شروط الإمامة، ولاتنعقد الامامة لأحد مع وجود من هو أفضل منه فيها. فإن عقدها قوم للمفضول، كان المعقود له من الملوك دون الأئمة».[1]

٦- راي المعتزلة:

«قال النظام والجاحظ: إن الإمامة لايستحقها إلا الأفضل، ولايجوز صرفها إلى المفضول، وقال الباقون من المعتزلة: الأفضل أولى بها، فإن عرض للأمة خوف فتنة من عقدها للأفضل، جاز لهم عقدها للمفضول».[2]

إلا أنهم وضعوا مقياساً للأفضلية وهو تحقيق مصلحة الأمة باختيار الحاكم المناسب تبعاً للظروف السياسية والاجتماعية السائدة آنذاك.

لقد فرقوا بين تقوى وصلاح الحاكم، وبين فهمه لسياسة الأمة، ووعيه لشؤون الحكم، ومقدرته في رعاية مصالح الناس، ورأوا أنه إذا اجتمع لنا من هو الأفضل صلاحاً وتقوى مع من هو أقل منه فيها، أي /مفضول/ في الدين.. لكنه أقدر على رعاية المصالح، وكان الناس إليه أميل، كان الأولى - وليس الجائز - فقط تقديم (المفضول) على (الأفضل) في الاختيار لمنصب الامام.. فقالوا: «انه لايمتنع أن يكون الأفضل إنما يعرف حل مايلزمه، ويتقدم في الفضل للعبادة وغيرها، ويختص المفضول بالفقه وبالمعرفة السياسية، فعند ذلك يكون المفضول أولى.. أن الفضل

---

[1] البغدادي، عبد القاهر بن طاهر. أصول الدين (استانبول: مطبعة الدولة، ١٩٢٨)، ص٢٩٣.

[2] م.س، ص: ٢٩٤.

المطلوب في الامامة إنما يراد لما يعود على الكافة من المصلحة..».[1]

٧- راي الخوارج:

يرى الخوارج أن تختار الأمة من تراه جديراً بمنصب الخلافة برعاية مصالحها، لكنهم لم يبينوا كيفية الترشيح، ومن الذي له حق الانتخاب؟، وهل موافقة كافة أفراد الأمة شرط لتولي هذا المنصب؟

لقد كانت حركة الخوارج ذات صبغة عملية فهي تفتقد الغطاء النظري، والأسس الفكرية لممارستها العملية، وتبين ذلك من موقفهم تجاه الآخرين ممن لايقولون برأيهم، والذي يرون أنهم كفاراً، في الخلاص منهم تقرباً من الله وتطبيقاً لأحكام دينه.

«.. يصح أن يكون الخليفة في غير أولاد علي، أو في غير بني هاشم وقريش، بل يصح أن يكون الخليفة غير عربي، عبداً حبشياً.. فاشترطوا أن لايكون الخليفة ذا عصبية، ليسهل عزله، وإقالته،.. وقد آجازوا تعدد الأئمة، في حال عدم تحقيق شروط الخلافة في شخص واحد،.. فأذن مؤذنهم ألا إن على الحرب شبث بن ربعي التميمي، وعلى الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري، والبيعة لله عز وجل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..».[2]

---

[1] الهمذاني، القاضي عبد الجبار ابن أحمد. المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج٢٠، القسم الأول، ص٩٦، نقله محمد عمارة. المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٨) ط٢، ص١٩٨.

[2] البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٥٧، وانظر، حسين، طه، علي وبنوه (القاهرة: دار المعارف ١٩٦٦)، ص٨٨-٨٩.

المبحث الخامس

الحاكم المتغلب

كي تكون الخلافة نبوية لابد من المبايعة كأسلوب لاختيار الخليفة، وفق مبدأ الشورى، ويقوم بالمبايعة، أهل الحل والعقد، أو (نواب الأمة الآن) أما لماذا لايتم انتخاب الخليفة من عامة المسلمين؟ ولماذا اختص أهل الحل والعقد بإختيار الخليفة؟.

فذلك يعود إلى استحالة مبايعة جميع أفراد الأمة للحاكم، لأن المبايعة كانت مصافحة باليد، بين الخليفة وأي فرد يقبله كخليفة، أما السبب الثاني فيعود إلى اتساع رقعة الدولة الاسلامية، وبعدها عن عاصمة الدولة. لكن السبب الثالث وهو المهم عدم قدرة جميع أفراد الأمة على اختيار الأفضل لعدم تساويهم في الوعي السياسي، فلكل فرد اهتماماته، ودرجة وعيه وثقافته. وليس هناك أحزاب سياسية منظمة تقوم بهذه المهمة، ولعل السبب الأكثر منطقية أن عادة مبايعة أفراد الأمة لم تكن معروفة، ولقد تواضع الناس على الاكتفاء بمبايعة المشاهير وذوي المكانة الاجتماعية «يروى أن عمر أراد أن يعرض أمر الشورى على جماهير الحجاج، فذكره بعض الصحابة بأن الموسم يجمع أخلاط الناس، ومن لايفهمون المقال، فيطيرون به كل مطار، وأنه يجب أن يرجع هذا إلى أن يعود إلى المدينة فيلقيه على أهل العلم والرأي، ففعل».[1]

---

[1] شبلي، أحمد. السياسة في الفكر الاسلامي، (مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣) ط٥، ص٦٣.

أما الامام علي بن أبي طالب فقد «قال للجموع التي اتجهت إليه بعد مقتل عثمان بن عفان يريدون مبايعته للخلافة: إن هذا الأمر ليس لكم، إنه لأهل بدر، أين طلحة والزبير وسعد؟».[1]

إلا أن انتشار الثقافة والتعليم بين أفراد الأمة، مما يتناسب طرداً مع وعيهم السياسي، أسهم في إمكانية مشاركة الجميع في اختيار الحاكم. لكن ماهو موقف الفقهاء ورأيهم في حال وصول حاكم متغلب إلى السلطة بطريق غير شرعي؟

هل الثورة على الحاكم المتغلب هي الحل؟ لأنها في ذلك إزالة لطرف خاطئ، أم الانسحاب المطلق من الساحة الاجتماعية كحل فيه أمان من المخاطرة في علاقة صدامية مع حاكم متغلب، ثم متى بدأ ظهور الحاكم المتغلب في تاريخ المسلمين؟

سوف نستعرض آراء بعض الفقهاء والمفكرين وبعض الفرق الاسلامية:

١- راي الامام زيد في الحاكم المتغلب:

لقد كان للفكر المعتزلي أثر واضح في سيرة الامام زيد ﷺ وذلك برفعه شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتطبيقه عملياً، فقد دفع حياته ثمناً لهذه القناعة التي خالف بها بقية آل البيت، باعتزالهم السياسة، واعتمادهم التقية مذهباً، على الرغم من خروج آخرين من آل البيت فكانوا شوكة في خاصرة الدولتين الأموية والعباسية، إلا أن عاقبة الأمر لم تكن في صالحهم.

فمن صفات الإمام عند الإمام زيد ﷺ: «أن يكون فاطمياً، عالماً، شجاعاً، سخياً، خرج بالإمامة، وأن يكون إماماً واجب الطاعة».[2]

إن خروج الامام الفاطمي داعياً لنفسه شرط أساسي من شروط الامامة عنده، وقد بين سبب خروجه في خطابه السياسي الوجيز، إذ قال «إنا ندعوكم: إلى

---

[1] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص٤٦٢ ومابعدها.

[2] الشهرستاني. الملل والنحل، ج١، ص١٤٥.

كتاب الله، وسنة نبيه، ﷺ، وجهاد الظالمين، والدفاع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء، ورد الظالمين، وإقفال المجمر، ونصرة أهل البيت على من نصب لهم، وجهل حقهم».[1]

ومن خلال النص نجد عدة أمور أقلقت الامام زيد، وهذا مايبدو على السطح، وهي:

آ- إقامة الحكم الاسلامي وفق كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام. وماخرج إلا ليعيد القرآن والسنة كمصادر للتشريع، ودستور للأمة كما أوصى بذلك رسول الله محمد ﷺ.

ب- الدعوة إلى جهاد الظالمين، ويقصد حكام بني أمية، وردهم عن غيهم وطغيانهم، وعلى المسلمين نصرة أهل البيت لأنهم أحق بالحكم من غيرهم.

ج- الدفاع عن المستضعفين لأنه يرى أن الدولة الأموية ظالمة، وقد ابتعدت عن تعاليم الشريعة، فلم تعط للضعفاء والفقراء حقوقهم، بل سلبتهم إياها وظلمتهم.

د- ضرورة توزيع الفيء على أهله بالعدل، ولكل حسب حقه، دون أن تستأثر الأسرة الحاكمة بأموال الرعية كما حدث.

هـ- ضرورة إقفال المعسكرات، وذلك لمنع اتخاذ المرابطة على حدود الدولة سبباً لبعد الرجال عن ديارهم، وفي هذا فتنة لهم ولأهليهم، وهذه الدعوة ليس تعطيلاً للجهاد، بل إشارة إلى أن الوضع الداخلي للدولة، أولى بالتصحيح، ومن الفتوحات التي اتخذت ذريعة من قبل الحكم لتغريب الرجال.

تبين لنا من خلال خطابه السياسي أنه داعية ثورة على النظام القائم، يحاول أن يثبت شرعية خروجه، وبالمقابل ظلم واغتصاب الأمويين للسلطة التي هي من حق

---

[1] الطبري. تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص١٧٢.

آل البيت؟!.

يرى الامام زيد شرعية بل وضرورة الخروج على الحاكم الظالم الجائر، ورفض مبدأ التقية، فلجأ إلى أعلى مراتب تغيير المنكر، ألا وهو التغيير باليد. لكن هل كان هشام بن عبد الملك ظالماً حقاً؟ أم أنه ظالم من وجهة نظر الامام زيد وآل بيته كخصم لهم؟!.

لقد كانت حياة الامام زيد تطبيقاً عملياً لآرائه التي استشهد في سبيل تحقيقها.

٢- راي الامام جعفر الصادق في الحاكم المتغلب:

لم يكن هناك كلام محدد للامام الصادق في جواز الخروج على الحاكم الظالم أو عدم جوازه، بل هناك مواقف معينة يمكن تفسيرها، بما يتناسب وفكر الامام الصادق، وسيرة حياته.

«فقد نهى الصادق أولاد عمه: محمد النفس الزكية، وإبراهيم، وأباهم زيد بن علي عن الخروج، وليس معنى ذلك أن الصادق كان يقر الحكم الظالم أو المغتصب، وقد صرح بأن حكم بني أمية كان مغتصباً، والحكم العباسي كان قريباً منه، ولم يوجد مايدل على أن رأيه فيهم مغاير في حكم الأمويين، وإنما معنى سكوته أنه يرى أن الضرر في الخروج من غير تدبير محكم، والقوة في يد الحاكم كاملة، يكون الضرر في الخروج أكثر من النفع، وكل عمل إثمه أكبر من نفعه يكون محرماً شرعاً... وإن الطاعة واجبة بحكم الفقه حتى يتم التغيير من غير فتن، ولا خروج غير ناجح يودي إلى مظالم أشد وأعنف، ذلك أن الانتصار يزيد المغتصب قوة، ويزيد مناوئه ضعفاً، فإن النصر يغري بالقوة والعنف، والهزيمة تغري بالتخاذل والضعف والاستخذاء، واليأس من الخلاص».[1]

إلا أن ابن حزم يذكر لنا موقف الشيعة من الحاكم المتغلب فيقول: «.... لقد

[1] أبو زهرة، محمد. الامام الصادق، ص٢٠٦-٢٠٧.

قصروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على القلب فقط أو باللسان إن قدر على ذلك، إلا إذا ظهر الامام المنتظر فيجب سل السيوف معه حينئذ».[1]

٣- راي الامام ابي حنيفة في الحاكم المتغلب:

لم يدع الامام أبو حنيفة إلى الخروج على الحاكم المتغلب بشكل صريح لكنه أيد الحركات التي خرجت على الأمويين، وعلى العباسين، وكان يكتفي بالتأييد الكلامي في حلقة درسه، والتحريض إن استفتي في ذلك الخروج دعماً لهذه الحركات، وتثبيط القادة الذين يكلفون بزجر وردع هذه الحركات عن القيام بواجبهم.

فقد دفع مبلغاً من المال لمساعدة الخارجين على الحكم، ورأى أن خروجهم كان شرعياً، وشبه بعضه بخروج رسول الله ﷺ يوم بدر.

«يروى أنه لما خرج زيد بن علي زين العابدين على هشام بن عبد الملك سنة (١٢١)هـ قال أبو حنيفة: ضاهى خروجه خروج رسول الله ﷺ يوم بدر فقيل له: لم تخلفت عنه؟ قال: حبسني عنه ودائع الناس، عرضتها على ابن أبي ليلى فلم يقبل، فخفت أن أموت مجهلاً» ويروي أنه قال في الاعتذار عن عدم الخروج معه: لو علمت أن الناس لايخذلونه كما خذلوا أباه، لجاهدت معه لأنه إمام حق، ولكن أعينه بمالي، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم، وقال للرسول ابسط عذري له..».[2]

يتضح من خلال الموقفين أن أبا حنيفة كان له دور في إثارة الجماهير وتخلفه عن الخروج، لا مبرر له، على الرغم من الحجتين التي وردتا على لسانه. وفي الثانية، كان الأولى به أن ينصح الامام زيد بعدم الخروج، لا أن يمده بمال! «...هذان الخبران يدلان على أنه يرى الثورة على ملك الأمويين أمراً جائزاً شرعاً،

---

[1] ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد. الفصل في الملل والأهواء والنحل. (القاهرة [د.ن] [د.ت])، ج٤، ص١٧١.

[2] أبو زهرة، الامام أبو حنيفة، ص٣١.

إذا كان من إمام عادل مثل الامام زيد بن علي ﷺ، وأنه كان يود لو حمل السيف مع المجاهدين، ولكنهما يدلان أيضاً على أنه لم يكن مؤمناً بحسن النتائج».[1]

٤- راي الامام مالك في الحاكم المتغلب:

لقد عاش الامام مالك في ظل الدولتين الأموية والعباسية وشهد كثيراً من حالات الخروج على الحكام (الخوارج، الحركات العلوية)، فلم يحرض أحداً على الخروج على الحكام، وإن كانوا ظالمين، لأن الخروج يثير الفتن، وتسفك فيه الدماء الحرام، وتستباح الديار، ومما يؤيد موقفه من عدم جواز قتال الحاكم، رأيه في الحركات التي قامت ضد الحكام من بني أمية، وبني العباس، فلم يؤيد أي ثورة قامت في زمانه على الحاكم، ليس لعدم شرعيتها لأنها قامت ضد إمام جائر، بل لأن نتيجتها، كما تبين من التجارب، لا خير فيها.

«فقد سئل عن قتال الخارجين على الخليفة، فقد قال قائل: أيجوز قتالهم؟ فقال: إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز، فلا. فقال: فإن لم يكن مثله، فقال: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما».[2]

«ويمكن تعليل موقفه في عدم الخروج على الحاكم المتغلب بالأسباب التالية:

آ- لأنه يرى أن الخروج قد تعطل الحدود، ويهدم عمود الاسلام، ولذا قال فيهم: هم يلون من أمورنا: الجمعة، والفيء، والثغور، والحدود، والله لايستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا وإن ظلموا، والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون.

ب- ولأنه رأى أن كثرة الخروج، تحل الدولة الاسلامية، وتجعل بأس المسلمين بينهم شديدا، فيكلب فيهم عدوهم، ويجرؤ عليهم خصومهم.

ج- ولأنه رأى الدماء تهرق في الخروج من غير حق يقام، ومظلمة تدفع،

---

[1] م.س.ن، ص.ن.

[2] أمين أحمد. ضحى الاسلام، (بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت])، ج٢، ص٢٠٧.

والناس يخرجون من يد ظالم إلى أظلم.

د- ولأنه وجد أن الطريق المعبد لاصلاح هذا الفساد هو إصلاح حال المحكومين. إذ رأى الفساد عم الاثنين (الحاكم والمحكوم)، وتعذر عليه إصلاح الحاكم. فقد سمع مرة رجلاً يدعو على الحجاج، فقال له: لاتفعل رحمك الله، إنكم من أنفسكم أوتيتم، إننا نخاف إن عزل الحجاج أو مات، أن تليكم القردة والخنازير، ولقد وصلني كتابك تذكر ماأنتم فيه من جور العمال، وإنه ليس ينبغي لمن عمل المعصية أن ينكر العقوبة وما أظن الذي أنتم فيه، إلا من شؤم الذنوب والسلام». [1]

لقد ربط بين ظلم الرعية فيما بينهما، وبين ظلم الحاكم، وأن ظلم الحاكم هو إنعكاس مباشر لظلم الرعية، فكي يصلح حال الحاكم لابد من إصلاح حال الرعية أولاً وإلا نكون مثل الذي يضع العربة أمام الحصان.

وصدق الله العظيم حين قال في كتابه العزيز: ﴿إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..﴾.

٥- رأي الإمام الشافعي في الحاكم المتغلب:

يعتقد الامام الشافعي أن الامامة لابد منها يعمل تحت ظلها المؤمن، ويستمتع بها الكافر، ويقاتل بها العدو، وتؤمن بها السبل، ويؤخذ بها للضعيف من القوي، حتى يستريح بر، ويستراح من فاجر، فقد أضفى صفة الشرعية على الحاكم المتغلب عندما أسماه خليفة.

وكان «يرى الامامة في قريش كما يرى جمهور المسلمين، وأن الامامة قد تجيء من غير بيعة، إن كان ثمة ضرورة، حتى لقد أثر عنه أنه قال فيما يروي

---

[1] أبو زهرة، محمد. الامام مالك، هامش ص٥٩ ملخص من كتاب تاريخ الجدل للمؤلف - الناشر دار الفكر العربي، القاهرة. [د.ت]).

حرملة تلميذه: كل قرشي علا الخلافة بالسيف، واجتمع عليه الناس فهو خليفة، فالعبرة عنده في الخلافة في أمرين: كون المتصدي لها قرشياً. واجتماع الناس عليه، سواءاً كان الاجتماع سابقاً على إقامته خليفة كما في حال الانتخاب والبيعة، أم لاحقاً لتنصيبه خليفة، كحال المتغلب».[1]

٦- راي الامام احمد بن حنبل في الحاكم المتغلب:

«يؤثر الطاعة لإمام متغلب، على الخروج على الجماعة.. لأنه يرتكب في فتن الخروج من الظلم ما لايرتكبه الحاكم المستبد من ظلم.. فقد كان ينهي عن الخروج، ويعتبره بغياً مهما تكن حال الخليفة، ولو كان قاتله، ومن صب عليه سوط العذاب».[2]

إن الامام ابن حنبل صاحب مدرسة في الأثر، وهذا الرأي يبين اعتماده الحديث النبوي في الفتن، وعلى سيرة السلف الصالح، وهو متبع، ويتفق مع الامام مالك، والامام الشافعي في عدم جواز الخروج على الحاكم، إلا أنه يختلف في ذلك مع الامام أبي حنيفة.

لقد حدد السنة الواجب اتباعها في حال ابتليت الأمة بحاكم ظالم جائر قائلاً: «.. والسمع والطاعة للأئمة، وأمير المؤمنين، البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا به.. ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين، والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة، البر والفاجر، وقسمة الفيء، وإقامة الحدود إلى الأئمة ماض، ليس لأحد أن يطعن عليهم ولا ينازعهم.. ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأي وجه كان، بالرضى أو بالغلبة، فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف

---

(١) أبو زهرة، محمد. الامام الشافعي، ص١٢١.

(٢) أبو زهرة، محمد. الامام أحمد بن حنبل، ص١٤٥.

الآثار عن رسول الله ﷺ، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية، ولايحل قتال السلطان، ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق».[1]

إن الإمام أحمد رجل يتبع الأثر والسنة باعتبارهما مصدراً هاماً يعتمدها في تفسير الواقع، وتجميد اللحظة وفقاً لمعايير السنة والسلف الصالح، وقد رأى بعض الفقهاء عدم جواز الجهاد مع الامام الظالم، والصلاة خلفه غير جائزة، وخاصة صلاة الجمعة التي لها مدلول خاص، لأن هذا الاجتماع يعطي المسلم شعوراً بالوحدة والقوة والعزة، وإمكانية تجاوز الواقع المؤلم ثم يضفي شرعية على الحاكم المتغلب الذي يؤم هذه الجماعة في الصلاة. إلا أن الامام أحمد يرى ضرورة الوحدة الاجتماعية خلف الحاكم مهما كان شكله، لما فيه من تماسك واستقرار للجماعة.

٧- رأي الخوارج في الحاكم المتغلب:

يرى الخوارج أن الحاكم المتغلب غير شرعي، ويجب خلعه فقد «ذكر الكعبي في مقالاته أن الذي يجمع الخوارج على افتراق مذاهبهما: إكفار علي وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل، وكل من رضي بتحكيم الحكمين والإكفار بارتكاب الذنوب ووجوب الخروج على الإمام الجائر..».[2]

وبعد.. لماذا كل هذا التمسك بالحاكم، الظالم، المتغلب الذي وصل بطريق غير شرعي؟

يعلل ابن تيمية ضرورة وجود الحاكم، ولو كان ظالماً، «.. فإن بني آدم لاتتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس... ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولايتم ذلك إلا

---

[1] ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي. مناقب الامام أحمد بن حنبل (بيروت: درا الآفاق الجديدة ١٩٧٣)، ص١٧٥، ١٧٦.

[2] البغدادي. الفرق بين الفرق، ص٥٥.

بقوة وإمارة، وكذلك سائر ماأوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لاتتم إلا بالقوة والإمارة، ولهذا روي: أن السلطان ظل الله في الأرض. ويقال: ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان. ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها للسلطان».[1]

أما علي زيعور فيعلل سبب رضى الفقهاء بالحاكم الفاجر، المتغلب، الظالم قائلاً: «... ونحن الجماعة حتى في عصورنا القريبة لم نتخيل الرئيس خارج فكرة المستبد العادل، أو صورة الأب الحنون بقساوة. دائماً الرئيس ماثل في تصورنا على أنه ذو قدرات كثيرة، ونحمله الرغبة في أن يرفعنا، ونطلب منه أن يقاتل عنا، ويجعلنا أبطالاً، ويؤمن لنا الحماية والرعاية، والنجاحية إزاء العدو، والمستقبل. وكنا نجعل من الرئيس شبه مقدس، ونتقبله (فاجراً كان أو فاسقاً) كان المهم، عندنا، أن يبقى حتى نحتمي ونشعر بالقدرة على التحكم بالمصير والسيطرة على الواقع.

لعلي اقتربت من الحقيقة في تحليلي ذات مرة لخوف الفقهاء، وعلماء الكلام من فقدان الخليفة، فذلك الخوف اللاسوي على الأمة هو من أسباب الرضى الفاسق والفاجر والداعر، لا بالظالم والقاهر فقط. لقد زعمت أن الخوف على وحدة الأمة وعلى الشريعة ليس وحده المحرك للتمسك الطفلي بالخليفة. فهناك سبب لاواع... إن غياب السلطة يحرك الرغبات الذاتية الممنوعة، ويبرز نتيجة ذاك القلق، والمخاوف البدئية الأولى للطفل. السلطة تمنعني من الاعتداء، ومن تحقيق ماأمنعه على نفسي وما أكبته، ومن جهة أخرى، تمنع السلطة الآخرين من اتيان ذلك إزائي. أنا أحتاج للسلطة كي أعمق في نفسي كبت رغباتي المحرمة، وميولي العدوانية، أو اللاأخلاقية أو اللا اجتماعية، أحتاجها كي تدفع عني القلق الذي

[1] ابن تيمية. السياسة الشرعية، ص١٣٨، ١٣٩.

يحدثه في الشعور بأن تلك الرغبات المقموعة داخلي آخذة بالتحرك أو معرضة للإنفلات من قبضتي، فالسلطة طريقة من طرائق الضبط الذاتي ومراقبة النزوات الآثمة.

السلطة ضرورية حتى لايعود المكبوت... إنها تضبط علاقتي مع الآخر، ومن ثم تقيم الانسجام داخل الجماعة».(١)

لذا نجد الفقهاء يلتمسون المبررات من أجل شرعية حكم معاوية بن أبي سفيان على الرغم من وصفه بالباغي: «... وحسبنا في مجال العقيدة، أن نعلم طبقاً لما تقتضيه قواعد التشريع، أن الخليفة بعد عثمان هو علي ﷺ، وان معاوية، كان يمثل في تمرده عليه طرف البغي.. غير أننا يجب أن لاننسى أن الباغي مجتهد ومتأول... ولم يخرج من ملة الاسلام».(٢)

«... لقد انقلبت الخلافة إلى ملك مع معاوية، وبل ومنذ حرب صفين نفسها... فقد وجد الضمير الاسلامي السني أمام هذا الاختيار: إما استمرار الفتنة والحرب الأهلية المتسلسلة.. وإما قبول الأمر الواقع وإضفاء نوع ما من الشرعية عليه مادام الحاكم يظهر اسلامه ولا يأمر بمعصية، مع الضغط عليه سلمياً (بالنصح والارشاد) كي يلتزم بالفروض الدينية والخلقية الإسلامية».(٣)

إن انقلاب الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، يعود لعدم وجود تقنين سياسي للأمة، ينظم مسألة الحكم، دون تركها قضية اجتهادية، تتغير بتغير الأحوال والعباد، ولايغيب عن بالنا أن مبايعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله الأمة شرها،

---

(١) زيعور، علي. قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية – المستعلي والأكبري في التراث والتحليل النفسي، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٢)، ص٢١٥، ٢١٦.

(٢) البوطي، محمد سعيد رمضان. فقد السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدي، (بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، ط١٠، ١٩٩١)، ص٥٥٦.

(٣) الجابري، محمد عابد. العقل السياسي العربي، ص٣٥٨، ٣٥٩.

كما قال عمر بن الخطاب.

لقد كان خطاب معاوية بن أبي سفيان يوضح ذلك الانقلاب من الخلافة الراشدة إلى الملك، ومن الشورى إلى ولاية العهد. فقد خطب عام الجماعة في المدينة المنورة قائلاً: «... أما بعد، فإني والله ماوليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضيت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفاراً شديداً، وأردتها مثل ثنيات عثمان (سنيات) فأبت علي، ومن يقدر على أعمالهم هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم. فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة: مواكلة حسنة ومشاربة جميلة. فإن لم تجدوني خير لكم فإني خير لكم ولاية. والله لاأحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له دبر أذني وتحت قدمي. وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه فإن السيل إذا زاد عنى، وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة. ثم نزل..».[1]

يلاحظ من الخطاب أن دولة معاوية هي دولة السياسة وليست دولة العقيدة، فقد كان معاوية أول حاكم متغلب في الإسلام، انحرف بمسار الدولة، ونظام الحكم فيها، إلى الملك القائم على القوة والغلبة، فهو مؤسس دولة الملك في الاسلام التي لازالت مستمرة.

وعلى الرغم من ملكية معاوية فإنه أنقذ الدولة الاسلامية من التفسخ والانقراض. فمن الفتنة في عهد عثمان التي أدت إلى قتله، إلى موقعه الجمل، فصفين.. الخ. تلك الحروب الأهلية المدمرة التي هددت كيان الدولة، استطاع معاوية بن أبي سفيان أن يعيد للدولة هيبتها، بل أعاد تأسيسها، وجدد شبابها،

---

[1] ابن كثير. البداية والنهاية، ج٨، ص١٣٥.

عندما تابع الفتوحات شرقاً وغرباً، وأرسى سياسة داخلية تقوم على حرية التعبير والنقد من قبل خصومه، مادام هذا الناقد لا يحمل سيفاً، فلا ضير عليه، لأن معاوية، يرى هذا النقد تفريغاً للشحنة، فهو لن يسمع لهم مهما قالوا لأن كلامهم تحت قدمه، ودبر أذنه. فهو صاحب الشعرة التي صارت مثلاً في السياسة، قال يوماً: «لاأضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولاأضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ماانقطعت، قيل وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها خليتها وإذا خلوها مددتها».[1]

هذا هو إمام الحكام المتغلبين في التاريخ الاسلامي، لكن هل كان الأتباع من الحكام في هذا الخط (الغلب في الحكم) لديهم حنكة، وصبر، وبذل معاوية ابن أبي سفيان؟

مما سبق ليس دفاعاً عن انحراف، لكنه قراءة للواقع، ورغم انحرافه صار مثالاً لما بعده، لأن المتغلبين على الحكم، ابتعدوا في كثير من الأحيان عن جادة الاسلام في سلوكهم الشخصي، أو السياسي، إلا بعضهم الذين أناروا صفحة التاريخ بومضات سريعة، ثم اختفت هذه الومضات، لتعود الأمة ثانية إلى الاستبداد والقهر والظلام.

---

(1) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري. عيون الأخبار، (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٣)، ج١، ص٩.

المبحث السادس

أهل البغي

في أجواء سياسة، يسودها الغلب في الحكم، والاضطهاد، والترف والتبذير، والحرمان، والفقر. لابد من أن يخرج أفراد، أو فئات على هذا الظرف الخاطئ، محاولين تصحيحه، بقوة السيف، كي يعيدوا الأمور إلى نصابها، ويعيدوا ممارسات الحكام إلى أصول الدين، معتبرين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون في أعلى مراتبه وطرقه، ألا وهو التغير باليد.

من هم هؤلاء؟ وماهي أصول معاملتهم كمعارضة مسلحة للحاكم؟

١- البغي لغوياً وفقهياً:

آ- تعريف البغي لغوياً:

لقد ذكر الفيروز آبادي في المحيط، فصل الباء، باب الواو والياء، مادة «بغيتة» مايلي:

«بغيته» أبغيه بغاء وبغى وبغية بضمهن، وبغية بالكسر طلبته.. وبغى عليه يبغى بغياً علا وظلم وعدل عن الحق، واستطال وكذب.. والبغي الكثير من البطر، وجمل باغ لايلقح.. وفئة باغية خارجة عن طاعة الامام العادل..[1]

---

[1] الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط، (بيروت: دار الجيل، والموسسة العربية للطباعة والنشر، [د.ت])، ج٤، ص٢٠٥-٢٠٦.

ب- تعريف البغي فقهياً:

هناك عدة تعاريف للبغاة في الفقه سنوجزها فيما يلي:

«الفئة الباغية في اصطلاح الفقهاء: فرقة خالفت الامام بتأويل سائغ في الظاهر، باطل بطلاناً مطلقاً. بحسب الظن لا القطع، أما المرتد فتأويله باطل قطعاً، فليس باغياً، وكذا الخوارج في الاعتقاد، دون قتال المسلمين، وهم صنف من المبتدعة. يكفرون من أتى بمعصية كبيرة ويسبون بعض الأئمة، ليسوا بغاة، وكذلك مانع حق الشرع لله أو للعباد ليس باغياً، لأنه لا تأويل له، ولابد أن يكون للبغاة شوكة وعَدَداً وعِدَداً، يحتاج الامام في دفعهم إلى كلفة ببذل مال أو إعداد رجال، فإن كانوا أفراد يسهل ضبطهم فليسوا بأهل بغي وأكد العلماء على أن البغاة ليسوا بفسقة ولا كفرة».(1)

وقد عرف ابن عرفة المالكي البغاة: «الامتناع عن طاعة من تثبت إمامته في غير معصية بمغالبة، ولو تأولا»، وعرف الحنفية البغاة: «بأنهم قوم لهم شوكة ومنعة، وخالفوا المسلمين في بعض الأحكام بالتأويل، وظهروا على بلدة من البلاد، وكانوا في عسكر، وأجروا أحكامهم»، وعرف المالكية البغاة: «بأنهم الذين يقاتلون على التأويل، مثل الطوائف الضالة كالخوارج وغيرهم، والذين يخرجون على الامام، أو يمتنعون من الدخول في طاعته، أو يمنعون حقاً وجب عليهم كالزكاة وشبهها». وعرفهم الحنابلة بقولهم: «هم الخارجون على إمام ولو غير عادل، بتأويل سائغ ولهم شوكة، ولو لم يكن فيهم مطاع. ويحرم الخروج على الامام ولو غير عادل».(2)

---

(1) الزحيلي، وهبة. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق. دار الفكر، ١٩٩١)، ط١، مج١٣، ص٢٤٠-٢٤١.

(2) الزحيلي، وهبة. الفقه الاسلامي وأدلته، (دمشق: دار الفكر ١٩٨٥) ط٢، ج٦، ص١٤٢-١٤٣.

٢- البغي في القرآن والسنة:

آ- البغي في القرآن:

إن الآيات التي وردت في القرآن تتحدث عن البغـي، بأنـه عـدول عـن الحـق، واتباع للظلم واتصاف بالكذب والتكبر على الناس، والتعـالي عليهـم. قـال تعـالى: ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحـه لتنـوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين﴾.(١)

وقال تعالى: ﴿إذ دخلـوا علـى داود ففـزع منهـم قـالوا لاتخـف خصمـان بغـى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾.(٢)

هذا البغي على المستوى الفردي، فحينا خصاماً بين اثنين، ظلم أحدهما الآخر، يسـعون إلى تحكيـم عـادل بينهـم. وحيناً آخـر الاسـتكبار والظلـم نتيجـة الغنـى، والأموال التي تكدست في يد واحدة، وحرم منها الآخرون، وبذلك يحدث اختلالاً في التوازن الاجتماعي.

أما البغي الاجتماعي، أي ممارسة البغي كفئة. فقد قال تعالى: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر مايشاء إنه بعباده خبير بصير﴾.(٣)

ولقد ربط الله سبحانه وتعالى بين التدمير الاجتماعي، وبـين تحكـم المترفين في السلطة فالخراب هو نتيجة بغي هذه الجماعة.

قال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسـقوا فيهـا فحـق عليهـا القول فدمرناها تدميرا﴾.(٤) أما إذا حدث قتال بين فئتين مـن المؤمنـين، فيجـب أن تقاتل الفئة الباغية، إذا لم يصلحوا. قال تعالى: ﴿وإن طائفتـان مـن المؤمنـين اقتتلـوا

---

(١) سورة القصص: ٧٥.

(٢) سورة ص: ٢٢.

(٣) سورة الشورى: ٢٧.

(٤) سورة الاسراء: ١٦.

فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين ۞ إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾.[1]

يقول الله تعالى آمراً بالاصلاح بين الفئتين المتقاتلتين: «(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) فسماهم مؤمنين مع الاقتتال.. (فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله...) أي حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله. وتسمع للحق وتطيعه».[2]

في النص القرآني لانجد البغي بين الحاكم وفئة معارضة، بل بين فئتين مؤمنتين، يطالب الحاكم بفض النزاع بينهما سلمياً، وإلا قوتلت التي تبغى على الأخرى، ومن هذه الآية استمد الفقهاء وجوب قتال البغاة الخارجين على الحاكم سواء كان عادلاً أم ظالماً، على أن لايكونوا أفراداً، بل جماعات. «فإن تعدت إحدى الفئتين ولم تستجب إلى حكم الله وكتابه، وتطاولت وأفسدت في الأرض، فيجب قتالها باستعمال الأخف فالأخف حتى الفيئة إلى أمر الله».[3]

ب- البغي في السنة النبوية:

لم يترك رسول الله ﷺ شيئاً ذا أهمية على المستوى الفردي والاجتماعي إلا حث عليه إن كان خيراً، وحذر منه إن كان شراً.

فقد حذر عليه الصلاة والسلام من الخروج على الحاكم العادل والظالم على السواء. فعلى المسلم السمع والطاعة، والطاعة لاتكون إلا في معروف، والمعارضة لاتكون إلا بقول الحق، وعصيان الحاكم الآمر بمعصية الله فلا طاعة له. «فعن علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه قال: سأل سلمة يزيد الجعفي رسول الله ﷺ

---

(1) سورة الحجرات: ٩. ،

(2) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ. تفسير القرآن العظيم (بيروت: دار الفكر العربي، [د.ت])، ج٤، ص٢١١.

(3) الزحيلي، وهبة. التفسير المنير، مجلد ١٣، ص٢٤.

فقال: يانبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا، فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم سأله في الثانية أو في الثالثة فجذبه الأشعث بن قيس وقال: اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ماحملوا وعليكم ماحملتم».[1]

«وعن حذيفة بن اليمان قال: قلت يارسول إنا كنا بِشَرٍ فجاء الله بخير فنحن فيه فهل وراء ذلك الخير شر قال: نعم، قلت: هل وراء ذلك الشر خير؟ قال: نعم. قلت: كيف؟، قال: يكون بعدي أئمة لايهتدون بهداي ولايستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب شياطين في جثمان أنس قلت: كيف أصنع يارسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع».[2]

وقد حذر رسول الله ﷺ من الخروج على الحكام على الرغم من أنهم يفعلون المنكرات. «فعن أم سلمة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضى وتابع قالوا: يارسول الله ألا نقاتلهم قال لا ماصلوا».[3]

إن المجتمع الذي أرسى قواعده رسول الله ﷺ، وهو مجتمع البنيان المرصوص فقد نبه إلى بعض العوامل التي تهدد كيان هذا البنيان، وكان منها الخروج على الحاكم ومايثيره هذا الخروج من فتن تهدد تماسك وتعاضد الجماعة.

ولعل معارضة أبي ذر لسلوك معاوية بن أبي سفيان، واصراره على كلمة الحق، الصارخة التي دوت في ساحات المدينة المنورة ودمشق، عندما رأى أن الدولة انحرفت عن اتجاه العقيدة، فزاد الترف، والبذخ، وانشغل الناس بالدنيا بعدما فتحت عليهم، وهو الزاهد الورع الذي عاهد رسول الله ﷺ أن يبقى كما تركه حتى

---

[1] رواه مسلم.

[2] رواه مسلم.

[3] رواه مسلم.

يلقى ربه. فكان أبو ذر – أمة وحده – نموذجاً للمعارضة، لكن هذه المعارضة لم تصل إلى درجة الخروج وإثارة الفتن بل كانت ضمن محورين: الأول قول الحق وأنه لايخاف في الله لومة لائم. والثاني طاعة الحاكم في المعروف قدر الاستطاعة.

«فعن عبد الله بن سيدان السلمي قال: تناجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما، ثم انصرف أبو ذر مبتسماً. فقال له الناس: مالك ولأمير المؤمنين؟ قال: سامع، مطيع ولو أمرني أن آتي صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت. وأمره عثمان أن يخرج إلى الربذة».[1]

لم يستطع أبو ذر أن يجاري الناس فيما يعملون، بعدما كثر المال في أيديهم فاختار الربذة مكان اقامة، وحيداً، منعزلاً، عن التطورات التي أصابت المجتمع الاسلامي بعد الفتوحات.

٣- معاملة اهل البغي في الفقه:

هل خروج فئة معينة على الحاكم نتيجة اجتهاد، وتأويل يبيح للحاكم تصفيتهم وإبادتهم؟

لقد وضع الفقهاء شروطاً محددة في التعامل مع البغاة وهذه الشروط هي:

«إذا لم يكن للبغاة منعة، فاللامام أن يأخذهم ويحبسهم حتى يتوبوا».[2]

«أما إذا كانوا أصحاب شوكة ومنعة، فهناك عدة شروط لقتالهم:

١- الأمر بقتال البغاة فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

٢- دعوتهم من قبل السلطان إلى الطاعة، والدخول في الجماعة، قبل قتالهم.

٣- إن أبوا إلا الخروج ورفضوا الصلح وقوتلوا: فلا يقتل أسيرهم ولا يتبع مدبرهم. ولايذفف على جريحهم، ولا تسبى ذراريهم، ولا أموالهم.

---

[1] ابن سعد. الطبقات الكبرى، مجلد ٤، ص٢٢٧.

[2] الزحيلي، وهبة. الفقه الاسلامي وأدلته، ج٦، ص١٤٣.

٤- أموال البغاة وأسراهم وجرحاهم، اختلف الفقهاء في أموال البغاة التي أخذت منهم أثناء قتالهم، فقال: محمد بن الحسن: لاتكون أموالهم غنيمة، وإنما يستعان بسلاحهم وكراعهم (خيولهم) على حربهم، فإذا انتهت الحرب رد المال إليهم.

وروي عن أبي يوسف أن ماوجد في أيدي البغاة من كراع وسلاح فهو فيء، يقسم، ويخمس، وإذا تابوا لم يؤخذوا بدم ولا مال استهلكوه.

وقال مالك والأوزاعي والشافعي: ماستهلكه الخوارج من دم، أو مال، ثم تابوا لم يؤخذوا به، وماكان قائماً بعينه رد إليهم.

وقال أبو حنيفة: يضمون، وأما أسراهم وجرحاهم فلا يقتلون.

والقول الأصح: مافعله الصحابة في حروبهم، وهم القدوة.

قال ابن عمر: قال النبي ﷺ: «ياعبد الله أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟ قال: الله وروسوله أعلم، فقال: لايجهز على جريحها، ولايقتل أسيرها، ولايطلب هاربها، ولايقسم فيئها».

٥- أما قوله تعالى: ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ يدل على أن من العدل في صلحهم ألا يطالبوا بما جرى بينهم من دم ومال، فإنه تلف على تأويل، وفي طلبهم تنفير لهم عن الصلح واستمرار في البغي».(١)

فالبغي لايخرج أهله عن الإيمان، لذا يجب أن تظل معاملتهم ضمن دائرة الإيمان «قال الحارث الأعور: سئل علي بن أبي طالب ﷺ - وهو القدوة - عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ قال: لا. من الشرك فروا، فقيل: أمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلا، فقيل له: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا».(٢)

---

(١) الزحيلي، وهبة. التفسير المنير، مج١٣، ص٢٤٢-٢٤٣ بتصرف.

(٢) م.ن، ص: ٢٤٥.

«وقد عرض قوم من الخوارج لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه لمخالفة رأيه. وقال أحدهم وهو – علي – يخطب على منبره: لا حكم إلا لله، فقال علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه: كلمة حق أريد بها باطل، لكم علينا ثلاث: لانمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولانبدؤكم بقتال، ولانمنعكم الفيء مادامت أيديكم معنا».[1]

وفي الحديث النبوي تحديد للدماء التي يحق اباحتها. فقد روي عن رسول الله ﷺ: «لايحل دم امرئ مسلم، إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس».[2]

٤- الفرق بين قتال البغاة وقتال المشركين:

لقد ذكر الماوردي ثمانية أوجه في خلاف قتال البغاة عن قتال المشركين:

«... ويخالف قتالهم قتال المشركين والمرتدين من ثمانية أوجه:

١- أن يقصد بالقتال ردعهم ولايعتمد به قتلهم.

٢- أن يقاتلهم مقبلين، ويكف عنهم مدبرين.

٣- أن لايجهز على جريحهم.

٤- أن لايقتل أسراهم.. ويعتبر أحوال من في الأسر منهم، فمن أمنت عدم رجعته إلى القتال أطلق، ومن لم يؤمن منه الرجعة حبس إلى انجلاء الحرب ثم يطلق ولم يجز أن يحبس بعدها.

٥- أن لاتغتنم أموالهم، ولاتسبى ذراريهم.

٦- أن لايستعان على قتالهم بمشرك معاهد ولاذمي، وإن جاز أن يستعان بهم على قتال أهل الحرب والردة.

---

[1] الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٦٣.

[2] رواه الشيخان.

٧- أن لايهادنهم إلى مدة ولايوادعهم على مال.

٨- أن لاينصب عليهم العرادات، ولايحرق عليهم المساكن، ولايقطع عليهم النخيل والأشجار، لأنها دار اسلام تمنع مافيها وإن بغى أهلها».[1]

لقد ضمن الفقهاء من خلال هذه الشروط، حق المعارضة للحاكم، ولو كانت هذه المعارضة مسلحة، فلم تبح دماءهم، ولم يخرجوا عن الإيمان، ولهم حق العودة إلى الجماعة، وذلك من خلال فتح باب الحوار معهم.

فكانت تجربة عمر بن عبد العزيز مع الخوارج تؤكد أن الحوار، ومحاولة اعتبار الآخرين (الخارجين على السلطة) مواطنين مخلصين، لكن مايعوز عملهم هو الصواب، فالخوارج إعتمدوا العمل المسلح هو الطريق الوحيد للوصول إلى تغيير الخطأ الذي يرونه منكراً وهم المخلصون بعقيدتهم أشد درجات الاخلاص فقد اختلط لديهم السياسي بالديني، لأنهم بدأوا كفرقة بعد التحكيم في قضية دينية، ثم كفروا مرتكب الذنوب الكبيرة، وفي ذلك اتهام لبني أمية الذين قاتلوهم، بأنهم غير شرعيين، فهؤلاء بغاة خرجوا على الحكم القائم، والحكام الأمويون متغلبون وصلوا إلى السلطة بطريق العهد، وليس بالشورى.

وبالتالي كل طرف يتهم الآخر بأنه غير شرعي يجب الخلاص منه، خدمة للاسلام والمسلمين!!.

---

[1] الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٦٥-٦٦.

الفصل الرابع

علاقة الفقهاء بالسلطان

٢- الجانب التطبيقي

المبحث الأول: جدلية العلاقة بين السياسي والديني

المبحث الثاني: مرغبات السلطان (المنح)

المبحث الثالث: مرهبات السلطان (المحن)

المبحث الرابع: النموذج في طرفي العلاقة (آ- نموذج السلطان)

المبحث الخامس: النموذج في طرفي العلاقة (ب- نموذج الفقيه)

المبحث الأول

جدلية العلاقة بين الديني والسياسي

منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض، وتعايش مع غيره من البشر. كانت له محرماته، وقادته الاجتماعيون، على الرغم من بساطة شكل هذه القيادة. أما محرماته، فتتمثل في نظام الطوطمية، الذي يكون عوضاً عن جميع المؤسسات الدينية والاجتماعية المفقودة، فما هو الطوطم؟

«... في العادة هو حيوان يؤكل لحمه مسالم، أو خطر مخيف، وفي النادر شجرة أو قوة طبيعية (مطر، ماء)، ذو علاقة خصوصية مع كامل العشيرة. فالطوطم هو أولاً الأب الأول للعشيرة، ومن ثم الروح الحامية لها، والمعين، الذي يرسل لها الوحي، والذي إذا كان خطراً يعرف أبناءه ويصونهم. ومن أجل ذلك يخضع أبناء الطوطم لالتزام مقدس، رادع ذاتياً، يقضي بأن لايقتلوا طوطمهم (يبيدون) وأن يستغنوا عن لحمه (أو عن أية متعة يقدمها)».[1]

إن الطوطمية مرحلة تاريخية مر بها الانسان أثناء تطوره الحضاري. فقد ورد في النص القرآني آيات عديدة تفيد أن الانسان في مرحلة ما، من تاريخه، وتبعاً لرسالة الرسول الذي تتحدث عنه الآيات، كان عابداً لقوى الطبيعة ولآلهة متعددة الأجناس، والأشكال.

لقد كان خطاب الأنبياء والرسل لأقوامهم، خطاب توحيدي، فيه إلغاء للآلهة

---

[1] فرويد، سيغموند. الطوطم والتابو، ترجمة بو علي ياسين، ط١ (اللاذقية: دار الحوار، ١٩٨٣) ص٢٣.

المتعددة التي يعبدونها، دون الله، وتصحيحاً للعقيدة المنحرفة المتمثلة بالشرك.

قال تعالى: ﴿وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن وداً ولا سواعاً، ولايغوث ويعوق ونسرا﴾.[1]

لذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يرسل الرسل عندما تنحرف عقيدة المجتمع. قال تعالى: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ۞ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ۞ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾.[2]

إلا أن العقيدة المنحرفة، لاتقف عند حد عبادتها للأصنام، بل وصلت إلى درجة تأليه الملوك، «الملك هو الذي يسير العالم. وليس على شعبه أن يشكره فحسب من أجل المطر ونور الشمس، اللذين يجعلان ثمار الأرض تنمو، بل أيضاً من أجل الريح التي تعيد السفن إلى شواطئها، ومن أجل ثبات الأرض التي يقفون عليها. إن ملوك المتوحشين هؤلاء مجهزون بسلطة وافرة وبمقدرة يغبطون عليها، ولايحوزها غير الآلهة»..[3]

وفي القرآن تجربتان لرسولين، مع الملوك المستكبرين المتألهين. قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت، قال ابراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين﴾.[4]

أما فرعون فكان رد فعله عنيفاً تجاه دعوة موسى عليه السلام الموحدة، التي تدعو إلى عبادة إله غير فرعون، فحيناً كان ساخراً، وحيناً آخر متوعداً مهدداً لموسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿وقال فرعون ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيري فأوقد لي ياهامان

---

[1] سورة نوح: ٢٣.

[2] سورة الأنبياء: ٥٢، ٥٣.

[3] فرويد. الطوطم والتابو، ص٦٦.

[4] سورة البقرة: ٢٥٨.

على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين﴾.[1]

إن العلاقة بين السياسي والديني قديمة، قدم التجمع البشري، فحيناً كانت صدامية، وحيناً آخر تبريرية، وحيناً تجتمع السلطتان بيد واحدة. ممثلة في ظاهرة الملك الإله، أو الرسول الحاكم، على الرغم من التباين الظاهر بين أيديولوجية كل من الملك الإله، والرسول الحاكم، لأن أهداف كل واحد منهم مغايرة تماماً، لأهداف الآخر. بل يحاول كل طرف إنهاء الآخر لاعتباره خصماً له، فاختلفت طرق الإنهاء التي اتبعها الملوك الآلهة، ضد الأنبياء والرسل، بين التهجير والإبعاد، وبين القتل والاضطهاد المستمر. أما طرق الأنبياء فكانت سلمية تحاول بناء القاعدة العريضة من الجماعة، المؤمنة بالتوحيد والمساواة، والعدل... علماً أن تجارب الأنبياء التي نجحت في التغيير الاجتماعي قليلة جداً، إذا لم تكن نادرة قياساً، لعدد الأنبياء والرسل وللفترة الزمنية الطويلة التي عاشتها التجربة الانسانية، وخير تمثيل لسيادة دولة العقيدة في الجماعة البشرية، دولة النبي محمد ﷺ وخلفائه الراشدين من بعده، فهي التجربة الوحيدة التي انتقلت فيه دعوة الرسول إلى بناء الدولة، ومادامت الدعوة المحمدية، خاتمة الرسالات السماوية إلى الأرض، فهذا يعني أن العقل البشري، والحالة الاجتماعية التي وصل إليها الإنسان عبر تطوره الاجتماعي الطويل، بإمكانه الربط بين الدعوة والدولة، وإقامة الدولة على أسس عقيدية، توحيدية، مع ماتقتضيه، الدولة السياسية من اجتهادات بشرية، تصيب وتخطئ.

فتحول بذلك الديني إلى السياسي، أو التلازم والتعاون بينهما، وربما تم الدمج بينهما قديماً (الإله الملك)، وحديثاً الرسول الحاكم، أو الفقيه الحاكم في مرحلة الخلفاء الراشدين، إلا أنه تم الانقسام بين العلم والحكم في المرحلة الأموية.

---

[1] سورة القصص: ٣٨.

«... إن مجتمع دولة الدعوة المحمدية زمن الخلفاء الراشدين كان يتألف من منزلتين فقط: كان الأمراء والعلماء فريقاً، والجند والرعية فريقاً آخر، ولا شيء غير هذين الفريقين يستحق أن يوضع في منزلة خاصة. وعندما قامت دولة (السياسة) مع معاوية أصبح الأمراء فريقاً والعلماء فريقاً آخر (في القمة) وأصبح الجند فريقاً والرعية فريقاً آخر (في القاعدة). وقد تطور الوضع خلال العصر الأموي في اتجاه قيام انقسام عمودي لهرم المجتمع يجعل من الأمراء والجند أي المجتمع السياسي كما كان يؤمئذ (الدولة) فريقاً، ومن العلماء والرعية أو المجتمع المدني (القوى المعارضة) فريقاً آخر».[1]

فبعد هذا الانقسام الذي حدث بين العلماء والأمراء، نحن أمام سلطتين، ولو أن الثانية، لاتمثل مفهوم السلطة بشكلها الدستوري. فهي ند مباشر للسلطة السياسية التي تحكم بالقوة، معتمدة عليها في تنفيذ برنامجها، وحفظ مصالحها، أما السلطة الدينية، فتعتمد على رأيها، وتأثيره في الجموع الشعبية، التي ترى أن مايقوله الفقيه، هو الحق والصواب، ويزداد هذا الاعتقاد، كلما كان صاحب السلطة الدينية، بعيداً عن الشبهات، مخلصاً، منسجماً مع مايحمل من عقيدة، وفكر، ولهذا يراه السياسي، خطراً على السلطة لأنه يمثل الشعب، وقوة الشعب، فيحاول مهادنته، أو إقصاءه، أو استمالته بالمغريات لأن «منطق الدولة يقوم على الالتزام بالطاعة لها وعلى استمرارها في احتياز السلطة. وذلك هو حالها الجوهري بما هم (القوة) الأساسية. و(أهل الدين) أيضاً، بما هم (قوة موازية)، يطلبون الأمرين كليهما: يطلبون (الطاعة) لله والرسول، ويطلبون (السلطة) للدين. والعلماء أو (جماعاتهم) هم بطبيعة الحال، الذين يمثلون هذه السلطة».[2]

---

(1) الجابري، محمد عابد. العقل السياسي العربي، ص٣٣٠-٣٣١.

(2) جدعان، فهمي. المحنة بحث في جدلية الديني والسياسي في الاسلام، (عمان: دار الشروق ١٩٨٩)، ص٣٣٥، ٣٣٦.

إن للسلطان وظيفته الاجتماعية، فلابد من ضبط وإدارة المجتمع، وإشاعة الأمن في الداخل والدفاع عنه في الخارج. وهذه الوظيفة تتطلب استمرار الاستقرار الاجتماعي للجماعة، ويحرص على الاستقلال بالسلطة وعلى حريته في الحركة. وفي ذلك انضباط وتوحد للرعايا في السلوك.

أما الديني، فيسعى إلى الحرية لكل الأفراد؛ ضمن الحدود المسموح بها دينياً، فيحاول بذلك التخفيف من سطوة الحاكم، وإعادته إلى جادة الصواب، في حال انحرافه، وربطه بالقيم الاجتماعية والدينية، التي تحذر من الاستبداد والظلم والفردية، وبالتالي استطاع الفقيه أن ينصب نفسه مراقباً على سلوك الحاكم، ومدى شرعية هذا السلوك مع حدود، وضوابط، وأحكام الشريعة، التي هو أمين على تنفيذها.

لقد كانت تجربة العز بن عبد السلام مع السلطان آنذاك، خير دليل على القوة الشعبية التي يمتلكها الفقيه، فعندما خرج من القاهرة، خرج أهلوها خلفه، مما جعل السلطان في وضع لايحسد عليه، اضطره إلى استرضائه وتنفيذ ما أمر به العز بن عبد السلام.

تعود أهمية رأي الفقيه في سلوك الحاكم، سواء كان مبرراً له، أو معادياً له إلى كونه إماماً في العبادات، إذ أن أغلب الشعب، يقلده في أمور الدين – خاصة العامة – ويعتبره حجة في ذلك، فما يحلله فهو حلال، ومايحرمه فهو حرام، وذلك ضمن حدود الكتاب والسنة، أما في الأمور المستجدة فاجتهاده يعتبر ملزماً لمن يتبعه في تقليد مذهبه في العبادات.

يقف كل من السلطان والفقيه على أرض مرتفعة وبينهما قاسم مشترك، هو المجتمع الذي يتعاملان معه، كل بطريقته، وبأدواته، وبذلك نكون أمام ثالوث لايمكننا تجاهل أحد أطرافه (السلطان – المجتمع – الفقيه) فالأول صاحب أفعال، والثالث صاحب أقوال وآراء، ولابد من أن يقوم الصراع، أو التعاون، بين الفعل

والقول في ساحة المجتمع.

وهكذا فإن وجود الوظيفتين - السياسية والدينية - في كل المجتمعات ضروري، لأن المجتمع، بلا حاكم، لايستطيع الاستمرار، وكذلك غياب المفكر، أو المنظر الديني سوف يؤثر على إنسانية الانسان في تعامله مع الحاكم، وطرفا العلاقة غايتهما الانسان، ومشكلات الانسان فمن غير الممكن غياب أحد طرفي العلاقة، ومن الممكن اجتماع الحكمة والقوة في يد واحدة، على الرغم من قلة هذا الاجتماع في تاريخ التجمع البشري.

وبالتالي لايمكن لأحد الطرفين، تجاهل الآخر، أو إبعاده، فالمحاولات التي قام بها السلطان للتخلص من سلطة الفقيه، لأن له ثقلاً جماعياً، لم يكتب لها النجاح (جاليلو مع الكنيسة، أحمد بن حنبل مع المأمون..).

أما الحركات السياسية التي اعتمدت رأي الفقه المنحرف في سلوكها، كي تتخلص من الحاكم الظالم من وجهة نظرها، كالخوارج، أو القرامطة، لم تستطع تحقيق هدفها. بل كان سبباً في إبادتها، وتلاشيها تاريخياً، لأن الحاكم قاتلها بشرعية اجتماعية وبوجوب إخماد نار الفتنة وسيادة الاستقرار في الجماعة.

فطرفا العلاقة، الفقيه، السلطان، لايستطيعان تجاهل بعضهما البعض، أو إبادة طرف لحساب طرف آخر، إلا أن السياسي يستطيع ممارسة كل أنواع القهر على الفقيه، كالسجن، والضرب، والاقامة الجبرية والمنع من التدريس والافتاء، وهذه الأخيرة، هي أقسى أنواع العذاب والقهر الذي أصاب الفقهاء، لأن الفقيه يرى سبب وجوده واستمراريته الاجتماعية في التدريس والافتاء، لأنهما مصدر قوته فإذا جرد منهما صار ضعيفاً، كفرد من أفراد الرعية، وعلى نقيض هذا الفقيه، نجد فقهاء يبررون ممارسات الحاكم مهما كانت، بفتاوى ذات صبغة شرعية، فهؤلاء الفقهاء كلهم نمط واحد سواء كانوا منافقين، أم أنها لجأوا إلى هذا الموقف تحت ضغوط قوة الحاكم ولن يغفر لهم ذلك لأنه لا طاعة إلا في المعروف.

فقد روى أن يزيد بن عبد الملك أحضر «أربعين شيخاً شهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب».[1]

لكن ثقافة وعلم الحاكم، لهما أكبر الأثر، في تقريب الفقهاء، والعلماء وأصحاب الخبرة والرأي، من صاحب اتخاذ القرار، فيسود على الأغلب التعاون والنصح، والمشورة بين الطرفين. ولقناعة الحاكم بأن استشارة هؤلاء هي السبيل الوحيد لعدم الوقوع في الخطأ.

وما فتوحات الاسكندر الأكبر الذي كان تلميذاً لأرسطو، إلا تنفيذاً لرؤيا أستاذه أرسطو السياسية، وطموحاته في توحيد العالم القديم بقيادة مقدونيا. فكان الفيلسوف هنا صانعاً للقرار، ومخططاً لإيديولوجيا سلطانية.

أما في عصر الخلافة الراشدة، فكانت العلاقة بين العلماء والأمراء متوحدة في قائد وحاكم الأمة. لأن الأمراء كانوا علماء بنفس الوقت، ثم حدث الانقسام بين العلماء والأمراء في بداية العهد الأموي، لكن عمر بن عبد العزيز، قام بتقريب الفقهاء والمحدثين، وطالب الحسن البصري بنصيحته وبيان صفات الحاكم العادل لأنه صاحب خلفية علمية فقهية، عرف بها في المدينة المنورة، عندما كان والياً عليها.

ثم كانت تجربة أبي يوسف الذي ألف كتاب الخراج لأمير المؤمنين هارون الرشيد. مبيناً فيه أصول السياسة المالية في الاجتماع الاسلامي.

إلا أن بعض الفقهاء والمثقفين، لاقوا أشد أنواع الاضطهاد فمنهم من مات في السجن مسموماً، والآخر شرد وطرد وبيع في سوق النخاسة، وثالث سجن حتى غير رأيه في قضية كونية، ورابع ضرب وسجن لأكثر من عشر سنوات، وخامس حرقت كتبه وحرمت من التداول. وآخرون هجروا، وأجبروا على الهجرة،

---

[1] عطوان، حسين. الفرق الاسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي. (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٦)، ص٧٦.

فاختاروا بين التشرد، أو الذل الفكري من أجل العيش فذلك عندما يعمل المثقف مع جهات غير شرعية، لاتحترم الفكر، بل تجعله جسراً لتحقيق مآربها السياسية، وخاصة إذا كانت معادية لسياسة البلد الذي هجر منه هذا العالم، الذي استمد شرعية ممارسته لعملية النقد من أصول شرعية، وردت في الكتاب والسنة، إنها مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فخيرية الأمة، مرتبط بأمرها بالمعروف، ونهيها عن المنكر، ومن أسباب الظلم والعدوان، الذي يصيب الأمة، تركها لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يمارس الحاكم سلطته بوسيلتين متباينتين الأولى: القمع لأن السلطة في جوهرها قمعية، لكنها لاتستطيع بالقمع وحده أن تحتفظ بسيادتها أو تحقق مشروعاتها، أو تحصل على مشروعيتها التي هي شرط ضروري لاستمرارها في مجتمع متوازن، أما الوسيلة الثانية: فهي المعرفة (الدينية – الدنيوية) التي تحقق مشروعية وجودها.

فالحاكم يدرك لا سلطة سياسية له، ولا مشروعية لحكمه، ولا إخضاع للمجتمع بغير امتلاكه للسلطة المعرفية المتمثلة بالفقيه وبالمثقف، ويرى ابن خلدون: «أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على أمره».[١]

و«... لاشيء كالرداء الديني يوفر للرئيس الدفء. والاحتماء، والانفراد واللانقاشية (التخلص من الجدال) بل واللازللية (البعد عن الزلل) والمعصومية (والقرب من المعصومية) وذلك الرداء تغير لوناً لا نسيجاً».[٢]

فجدلية العلاقة بين العلماء والأمراء ضرورية، بل لايمكن تجاهلها. فصلاح هذه العلاقة يعود خيراً على الأمة، أما فسادها يؤثر سلباً في حياة الناس. قال الأصمعي: «كان يقال: صنفان إذا صلحا صلح الناس: الأمراء والفقهاء..».[٣]

---

[١] ابن خلدون. المقدمة. ص٢٥٧.

[٢] زيعور، علي. قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، ص٢٠٢.

[٣] ابن عبد ربه. العقد الفريد، ج١، ص٣٢.

لكن الغزالي يرجع فساد الأمة إلى فساد العلماء. «... فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين، ولكنهم اتكلوا على فضل لله تعالى أن يحرسهم، ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة؟ فلما أخلصوا الله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فلينها وأزال قساوتها، وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء، فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعدهم أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا.

ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك. بفساد العلماء وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا فلم يقدر على الحسبة على الارذال، فكيف على الملوك والأكابر، والله المستعان على كل حال».[1]

أما ابن تيمية فيقول: «... كان السلف كالفضل بن عياض، وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها للسلطان».[2]

إلا أن هذه الأمنية لاتحل المشكلة الاجتماعية السياسية، بل يجب أن يعمم الوعي على جميع أفراد المجتمع، بإنتشار العلم، وسيادة التفكير العلمي في حل المشكلات الاجتماعية. وفي مثل هذا الجو يمكن أن تعيش الأمة حياة مسؤولة، بحيث يصبح الحاكم فرد في رعية، يطاع في المعروف، ويعصى فيما عدا ذلك.

وبهذا يتحول هذا الدعاء إلى ممارسة سياسية ايجابية الفعل والنتيجة.

---

(١) الغزالي، أبو حامد. الاحياء، ج٢، ص٣٥٧.

(٢) ابن تيمية. السياسة الشرعية، ص١٣٩.

المبحث الثاني

مرغبات السلطان (المنح)

تبدو المواقف محددة وواضحة في العلاقة بين الفقيه والسلطان، فالفقيه إزاء السلطة قد يكون ناقماً ناقداً، أو مبرراً، أو منسحباً، فهو إما مع السلطان، أو ضده، أو هو في حدود الهامش، منسحباً من الحياة السياسية تقيه، أو أن الهم السياسي الاجتماعي يأتي ثانياً بعد الهم الشخصي في السلامة، وإصلاح النفس.

وقد تبدو العلاقة بين الفقيه والسلطة علاقة فكرية، سياسية، اجتماعية، ثنائية الأبعاد، بينهما بعد مشترك هو المجتمع، فتكون العلاقة إما مقربة أو مبعدة.

يحاول الحاكم إرضاء الفقيه بالمنح، والأموال والهدايا، والمناصب، ويجعل مذهبه في العبادات مذهباً رسمياً للدولة، وهذا من أجل كسبه إلى صفه، وضمان ولائه، مقابل إعطاء الصفة الشرعية للحاكم، ولاسيما أن الفقيه المخلص يمثل الشعب وهو الجسر الذي يصل الحاكم عن طريقه إلى شعبه، وتصل هموم وطموحات الشعب إلى حاكمه بوساطة الفقيه الذي يستطيع اختراق حاشية الحاكم، فهو يسعى نحو هم جماعي، وليس لمغنم فردي.

إن أي حاكم يملك من المرغبات مالايملكه غيره من أفراد المجتمع، فقد كانت الهدايا، ذات ثمن سياسي، يسعى الحاكم من ورائها، إلى إصدار فتوى فقهية تؤيد الحاكم في سلوك ما، أو السكوت عن أمر، ومنعه من الانتشار لما قد يجلب للحاكم من متاعب، مثل عدم شرعية تصرف مابدر من الحاكم، لذا يحاول إسكاته، بطريقة

الترغيب، «لقد دس معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص، وهو يريد أن يعرف مافي نفس ابن عمر، أيريد القتال أم لا، فقال: ياأبا عبد الرحمن مايمنعك أن تخرج فنبايعك وأنت صاحب رسول الله ﷺ، وابن أمير المؤمنين، وأنت أحق الناس بهذا الأمر؟

قال: وقد اجتمع الناس كلهم على ماتقول؟ فقال: نعم إلا نفير يسير، قال: لو لم يبق إلا ثلاثة أعلاج بهجر لم يكن لي فيها حاجة، قال: فعلم أنه لايريد القتال، قال: هل لك أن تبايع لمن قد كاد الناس أن يجمعوا عليه ويكتب لك من الأرضين ومن الأموال مالاتحتاج أنت ولا ولدك إلى مابعده؟ فقال: أف لك، اخرج من عندي ، ثم لا تدخل علي. ويحك إن ديني ليس بديناركم ولا درهمكم وإني أرجو أن أخرج من الدنيا ويدي بيضاء».[1]

لقد رفض ابن عمر هذه المقايضة السياسية، أموالاً وأراضي كثيرة، مقابل بيعة يراها غير شرعية لمعاوية بن أبي سفيان، الذي رفع شعار المواكلة الحسنة، والمشاربة الجميلة، في خطابه السياسي الذي ألقاه في المدينة المنورة.

لقد كان العطاء السياسي من ثوابت السياسة الأموية، والعباسية، وبها استطاعوا أن يشلوا خصومهم، خاصة من قَبِلَ منهم الهدايا، بل وربطوهم بهم. أما الخليفة الراشدي الرابع فقد كان موقفه مغايراً لما سبق، فالمال يوزع حسب القانون، والحق، ولكل شخص حقه، ليس لفرد ميزة على غيره من المسلمين، في مال المسلمين، فالسيادة للعقيدة ومبادئها، وليس للقرابة، ولا للولاء السياسي!.

«لقد قدم عقيل بن أبي طالب على أخيه علي بالكوفة فطلب منه أن يقضي عنه دينه وكان مقداره أربعين ألفاً، فأجابه علي: (ماهي عندي، ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فإنه أربعة آلاف فأدفعه لك). فقال له عقيل: (بيت المال بيدك وأنت

---

[1] ابن سعد، الطبقات الكبرى، مج٤، ص١٦٤.

تسوفني بعطائك) فغادره إلى معاوية فأكرمه وقضى عنه دينه وزاده».[1]

تعددت مواقف الفقهاء إزاء مرغبات السلطان، فمنهم من يراها حلالاً، وله الحق فيها، وبعضهم يراها حراماً، أو مكروهة لدرجة شديدة. فيتأول ويأخذ بحذر، لذا سوف نستعرض النماذج التالية:

النموذج الأول: رفض المنح بين الشبهة والورع:

ومن هذا النموذج يمكننا ذكر الامام أبو حنيفة، والامام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري، هؤلاء الفقهاء ليسوا الوحيدين الذين رفضوا أخذ مال السلطان أو هداياه، بل هم مثالاً، لا حصراً.

ا- موقف الامام أبي حنيفة من أموال وهدايا السلطان:

لقد كان للامام نظرة متشددة في هدايا الخلفاء، فقد كان يرفضها جميعاً، وفي الوقت نفسه يقبل الهديا من سائر الناس، وحجته في رفض هدايا السلطان، قائمة على شكه في مدى كون مال السلطان حلالاً أم حراماً. فماله مشبوه.

لكن إذا كان للامام – الفقيه – حق في هذا المال كمواطن أو صاحب وظيفة، دينية، اجتماعية، فهل يترك حقه؟ ولا يأخذه لأنّ فيه شبهة أم يأخذه وشبهته على من جمعه؟ فهل نترك حقوقنا لأن الآخر جمع ماله من حرام؟ وقد «أثر في هذا السبيل عن المنصور العباسي أنه استدعى أبا حنيفة، وقال له: لم لاتقبل صلتي؟ فأجاب: ماوصلني أمير المؤمنين لشيء من ماله فرددته، ولو وصلني بذلك لقبلته، وإنما وصلني من بيت مال المسلمين، ولا حق لي في بيت مالهم، إنني لست ممن يقاتل من ورائهم فآخذ مايأخذ المقاتل ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذ الولدان،

[1] ابن طباطبا، محمد بن علي. المعروف بابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٥)، ص٧٦.

لست من فقرائهم فآخذ ما يأخذ الفقراء».[1] وقد خطب أبو العباس قائلاً: «إن هذا الأمر قد أفضى إلى بيت نبيكم، وجاءكم الله بالفضل، وأقام الحق، وأنتم معاشر العلماء، أحق من أعان عليه، ولكم الحباء والكرامة والضيافة من مال الله ماأحببتم، فبايعوا بيعة تكون أمامكم حجة لكم وعليكم، وأماناً في معادكم، ولاتلقوا الله بلا إمام فتكونوا ممن لا حجة له».[2]

إن المنصور يهمه مبايعة العلماء له، ولهم من المال مايرغبون، ثمناً لهذه البيعة لقد رغب الحاكم الفقهاء بالمال والهدايا، وهذه الأموال هي أموال الله؟! وهو المكلف بتصريفها، مادام خليفة الله في الأرض. «فكان رد أبي حنيفة: الحمد لله الذي بلغ الحق من قرابة رسول الله ﷺ، وأمات عناجور الظلمة، وبسط ألسنتنا بالحق، وقد بايعناك على أمر الله، والوفاء لك بعهدك إلى قيام الساعة، فلا أخلى الله هذا الأمر من قرابة نبيه ﷺ».[3]

إلا أن العهد الذي قطعه أبو حنيفة على نفسه في طاعة الخليفة، لم يستمر طويلاً لما رأى من ظلم العباسيين لآل بيت رسول الله ﷺ، وبالمقابل لقد عانى الحكام في ظل الدولتين العباسية والأموية، من ظلم آل البيت لهم، وذلك لخروجهم المستمر على الحكام، فأفتى بجواز الخروج على الحاكم الظالم، تأثراً بأستاذه الثائر، الامام زيد بن علي. امتنع أبو حنيفة عن الأخذ من أموال الحكام امتناعاً مطلقاً، معللاً ذلك بشبهة الحرام في مال الحكام، إلا أن الموقف السياسي هو الأكثر أثراً في ذلك وهو السبب الخفي في سلوك أبي حنيفة. من قراءة النص الأول نجده يبدأ باتهام الحاكم لأبي حنيفة، وماعرف عنه من ميول شيعية، ثم نتابع القراءة لنجد أن أبو حنيفة يرد على الاتهام، باتهام مماثل، بل هو أخطر بالنسبة للسلطان، لاتهامه في

---

(1) المكي. مناقب أبي حنيفة. (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨١)، ص١٩١.

(2) المكي. مناقب أبي حنيفة. ص١٢٨.

(3) م.ن، ص.ن.

سوء الأمانة المالية، لأنه يوزع أموال الأمة، على غير مستحقيها. وفي رفض أبي حنيفة لهدايا السلطان، نجد أن الدافع وراء هذا الموقف بشكل مباشر ليس هو دينياً، بل هو سياسي، وقد ظهر هذا الموقف بشكل مباشر فيما بعد، وتبين مدى رؤيته المعارضة للدولة، عندما أفتى بالخروج عليها ومد الخارجين بالمال.. الخ. وربما كان السبب الأول والأخير لعدم قبوله هدايا السلطان، عدم حاجته لذلك، فهو تاجر، وتدر عليه التجارة أرباحاً كافية، مما جعله يقف موقف المتحرر من سيطرة القضايا الاقتصادية، المتمثلة في الحاجة المادية.

لقد كان أبو حنيفة متكلماً رسمياً، باسم الفقهاء والعلماء، وذلك عندما استلم أبو العباس الحكم، وجمع العلماء طلباً تأييده، ومبايعته لأن بيعتهم له تعطيه الشرعية في الحكم، «فقد روى الربيع بن يونس حاجب المنصور أنه جمع مالكاً وابن أبي ذؤيب، وأبا حنيفة يسألهم عن خلافته، فقال مالك قولاً ليناً، وقال ابن أبي ذؤيب قولاً عنيفاً. وقال أبو حنيفة... المسترشد لدينه يكون بعيد الغضب، إن أنت نصحت لنفسك علمت أنك لم ترد الله باجتماعنا، فإنما أردت أن تعلم العامة أنا نقول فيك ماتهواه مخافة منك، ولقد وليت الخلافة، وماالجتمع عليك اثنان من أهل التقوى، والخلافة تكون باجتماع المؤمنين ومشورتهم».[1]

٢- موقف الامام سفيان الثوري من هدايا وأموال السلطان:

اتهم سفيان الثوري من يدخل على السلطان من العلماء باللصوصية فكان يقول: «... إذا رأيت القارئ يلوذ بباب السلطان فأعلم أنه لص..».[2]

ثم يزداد موقف الثوري سلبية وتطرفاً تجاه الحكام، عندما يفضل فقدان البصر على رؤية السلطان الظالم. «لو خيرت بين ذهاب بصري وبين أن أملأ بصري

---

(١) أبو زهرة، محمد. الامام أبو حنيفة ص١٥٦. نقله عن ابن البزازي، مناقب أبي حنيفة، ج٢، ص١٦.

(٢) الاصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد. حلية الأولياء ط٤ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٠)، ج٦، ص٣٨٧.

منهم لاخترت ذهاب بصري»،[1] «وسئل عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء؟ فقال: لا، دعه حتى يموت فإن ذلك إعانة له».[2]

لقد علل الثوري سبب خوفه من مخالطة السلطان، من استمالة الحكام له، بأموالهم وهداياهم، «ليس أخاف ضربهم، ولكني أخاف أن يميلوا علي بدنياهم، ثم لاأرى سيئتهم سيئة».[3]

لقد كان لسفيان الثوري موقفاً مع هارون الرشيد نتبين فيه الخطوط العامة التي التزمها الثوري في معاملته للسلطان.

«فعن أبي عمران الجوني قال: لما ولي هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنؤه بما صار إليه من أمر الخلافة ففتح بيوت الأموال وأقبل يجيزهم بالجوائز السنية، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد، وكان يظهر النسك والتقشف، وكان مؤاخياً لسفيان بن سعيد بن المنذر الثوري قديماً، فهجره سفيان ولم يزره، فاشتاق هرون إلى زيارته ليخلوا به ويحدثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه، ولا بما صار إليه، فاشتد ذلك على هرون فكتب إليه كتاباً يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هرون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن المنذر أما بعد، ياأخي قد علمت أن الله تبارك وتعالى واخى بين المؤمنين، وجعل ذلك فيه وله، واعلم أني قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك، ولم أقطع منها ودك، وإني منطو لك على أفضل المحبة والارادة، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله [هل الله قلده الخلافة كما يدعي؟!] لأتيتك ولو حبواً لما أجد لك في قلبي من المحبة، واعلم ياأبا عبد الله أنه مابقى من إخواني وإخوانك أحداً إلا وقد زارني وهنأني بما صرت إليه وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من

[1] م.س، ص.ن.

[2] الغزالي. احياء علوم الدين، ج٢، ص١٤٤.

[3] م.س، ج٧، ص٤٢.

الجوائز السنية مافرحت به نفسي وقرت به عيني وأني استبطأتك فلـم تـأتني، وقـد كتبت لك كتاباً شوقاً إليك شديداً، وقـد علمـت ياأبـا عبـد اللـه ماجـاء في فضـل المؤمن وزيارته ومواصلته، فإذا ورد عليه [كذا في الأصل، والأصح، عليك] فالعجل العجل». [1]

لكن ماهو رد سفيان الثوري على رسالة هارون الرشيد؟

«... وأدخل يده في كمه ولفها بعباءته وأخذه! فقلبه بيـده ثـم رمـاه إلى مـن كان خلفه وقال: يأخذه بعضكم يقرؤه فإني أستغفر الله أن أمس شيئاً مسـه ظـالم بيده.. فأخذه بعضهم..، ثم فضه وقرأه، وأقبل سفيان يتبسم تبسـم المتعجـب فلمـا فرغ من قراءته، قال: اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه، فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسـبه مـن حـرام فسـوف يصلـى بـه ولايبقـى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا، فقيل له: مانكتب؟ قال: اكتبوا

بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثوري إلى العبد المغرور بالآمال هرون الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان، أما بعد:

فإني قد كتبت إليك أعرفك أني قد صرمـت حبلـك، وقطعـت ودك، وقليـت موضعك، فإنك قـد جعلتنـي شـاهداً عليـك بـإقرارك علـى نفسـك في كتـابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين، فأنفقته في غير حقه، وأنفذته في غـير حكمـه، ثم لم ترضى بما فعلته وأنت ناء عني حتى كتبت إلـي تشـهدني علـى نفسـك، أمـا إني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قـراءة كتـابك وسـنؤدي الشـهادة عليك غداً بين يدي الله تعـالى، يـاهرون هجمـت علـى بيـت مـال المسـلمين بغـير رضاهم، هل رضـى بفعلـك المؤلفـة قلوبهـم والعـاملون عليهـا في أرض اللـه تعـالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟ أم رضى بذلـك حملـة القـرآن وأهـل العلـم

---

[1] الغزالي، أبو حامد. احياء علوم الدين (بيروت: دار المعرفة [د.ت]) ج٢، ص٣٥٣-٣٥٤.

والأرامل والأيتام؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك؟ فشد ياهرون مئزرك وأعد للمسألة جواباً، وللبلاء جلباباً، وأعلم أنك ستقف بين يدي الحكم والعدل فقد رزئت في نفسك إذا سلبت حلاوة الإيمان والعلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً، ياهرون قعدت على السرير ولبست الحرير، وأسبلت ستراً دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك، يظلمون الناس ولاينصفون؟ يشربون الخمر ويضربون من يشربها ويزنون ويحدون الزاني! ويسرقون ويقطعون السارق! أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس؟ فكيف بها ياهرون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي الظلمة وأعوان الظلمة فقدمت بين يدي الله تعالى، ويداك مغلولتان إلى عنقك لايفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار، كأني بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك زيادة عن سيئاتك، بلاء على بلاء، وظلمة فوق ظلمة، فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها، وأعلم أني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصح غاية، فاتق الله ياهرون في رعيتك واحفظ محمداً ﷺ في أمته وأحسن الخلافة عليهم، وأعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد فمنهم من تزود زاد نفعه ومنهم من خسر دنياه وآخرته. وإني أحسبك ياهرون ممن خسر دنياه وآخرته فإياك أن تكتب لي كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام».[1]

من خلال قراءة الرسالة التي بعث بها هارون الرشيد إلى-سفيان الثوري نجد أن الرشيد يحاول جهده أن يظهر للثوري مدى شوقه إلى اللقاء به، وصلته بمال

[1] أ- م.س، ص٣٥٤.

وهدايا، كما فعل مع غيره من العلماء الذين زاروه مهنئين له بالخلافة التي يقول أن الله قلده إياها! إن مركزه الجديد كحاكم أعلى للأمة يمنعه من الذهاب إليه حبواً، وذلك إما لمشاغله، أو لمهابة الملك، لذا بعث إليه الرسالة يستعجله الزيارة ويتضح من خلال سطورها الخلفية العلمية والفقهية لهارون الرشيد.

إلا أن رد الثوري على رسالة هارون الرشيد كان يتسم بالمحاسبة، وبعدم المخاطبة بخلافة المسلمين، بل بخطاب زاهد فقد رفيقه عندما صار هذا الرفيق من أهل الحكم والسياسة، فيعلمه بأنه قطع وده وصرم حبل المودة معه. ثم يحاسبه على تصرفه المالي عندما وزع الهدايا والأموال على العلماء المهنئين، وبأنه لا حق له في التصرف في بيت مال المسلمين إلا وفق معايير حددتها الشريعة، ثم يحذره من سلوكه الاداري المتمثل بإغلاق بابه أمام أفراد الشعب، وبوجود حاشية سوء تلتف حوله، تنفذ الأحكام على الناس من إقامة حد أو ضرب في خمر.. وهم – الحاشية – من يشربون الخمر ويزنون ويظلمون الناس، وكأنهم فوق القانون أو أن هذه الحدود لاتخصهم، ثم يحذره من يوم الحساب الذي سيسأل عن كل كبيرة وصغيرة اقترفتها يداه وعن كل سيئة فعلها أحد أعوانه. ثم ينهي رده على رسالة هارون الرشيد، بأنه في موقعه الحالي كخليفة خسر الدنيا والآخرة ويطلب منه أن لايكتب له بعد هذا الكتاب. لأنه لو فعل فلن يجيبه.

إلا أن الثوري يعذر من يتردد على أبواب السلاطين، لكثرة عيالهم، وحاجتهم، «... إن عامة من داخل هؤلاء يعني السلاطين، إنما دفعهم إلى ذلك العيال والحاجة...».[1]

لقد كانت حياة الثوري تطبيقاً فعلياً، لآرائه في مخالطة الحكام، فعاش مطارداً، ومات مجهلاً. لذا يفضل أن يكون للفقيه، مصدر رزق مستقل عن السلطان، من

---

[1] الأصبهاني. م.س، ج،ص: ٣٨.

خلال تجارة، أو عمل يقوم به، وبذلك يحقق الفقيه نوعاً من الاستقلالية الاقتصادية، التي يلازمها استقلالية في حرية الرأي، لأن من قبل مالاً أو هدايا ضمن سكوته، إلا أن هذا ليس دائماً، كما سنرى عند الامام مالك بن أنس الذي كان يأخذ من أموال السلطان، ولم يلتزم بما طلب منه في السكوت عن حديث: ليس على مستكره طلاق.

٣- موقف الامام أحمد بن حنبل من هدايا وأموال السلطان:

هناك عامل مشترك بين الفقهاء الثلاثة (أبي حنيفة، وسفيان الثوري، وابن حنبل) يتجلى في مجافاة ذوي السلطة، وعدم قبول هداياهم، أو أموالهم على الرغم من عدم حاجة أبي حنيفة، وميوله السياسية، لكن يبقى ظاهر فعله ممن يصنف في هذا النموذج. لقد كان «الامام أحمد بن حنبل تلميذاً، لسفيان الثوري، على الرغم من عدم لقائه به»،[1] فهو كالامام أبي حنيفة، لم يقبل مالاً، ولا ولاية، وهذا زيادة في الورع والزهد، مع أنه كان فقيراً. فجاء رفضه تجملاً وصبراً، وليس إكتفاءاً، «فلما انقطعت به النفقة، أكرى نفسه من بعض الجمالين»،[2] و«كتب للناس الكتب بأجرة».[3] رغم كل الهدايا والأموال التي قدمت إليه، سواء من قبل الحكام، أو من معارفه، وأصدقائه فإنه، كان يرفضها بأدب وعفة، «فعن محمد بن سعيد الترمذي قال: قدم لنا صديق من خراسان. فقال: إني أبضعت بضاعة ونويت أن أجعل ربحها لأحمد بن حنبل، والربح عشرة آلاف درهم.. فجاء رد الإمام أحمد بن حنبل على هذا العطاء أن قال: جزاه الله عن العناء خيرا، نحن في

---

[1] أبو زهرة، الامام أحمد بن حنبل، ص١٠٠.

[2] ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، مناقب الامام أحمد بن حنبل (بيروت: دار الآفاق الجديدة ١٩٧٣)، ط١، ص٢٢٦.

[3] م.س، ص٢٣٠.

غنى وسعة، وفي رواية أخرى أنه قال: دعنا نكن أعزاء».[1]

ولقد فكر المعتصم في أن يصاهر الامام، لو أنه أطاعه، وسكت عن سبب المحنة وحفظ على الملك ماء وجهه، وجلالة ملكه فقال: «والله إنه لفقيه، وإنه لعالم، وما يسوؤني أن يكون معي يرد على أهل الملك، ولئن أجابني إلى شيء فيه أدنى فرج، لأطلقن عنه بيدي، ولأطأن عقبه، ولاركبن إليه بجندي».[2]

إن مشي المعتصم بقوته، التي مارست كل أشكال الاضطهاد على الامام أحمد بن حنبل، وطلب ابنته زوجة له، إن هو إلا إرضاء واعتراف بمكانة الامام أحمد بن حنبل الاجتماعية، فلا يزور الملك إلا من كانت له نفس المكانة، فالإمام صار قائداً شعبياً خاصة بعد صموده للمحنة، لذا يحاول المعتصم مهادنته، وكسب رضاه، وقد رفض سابقاً مثل هذه العروض سعيد بن المسيب عندما طلب الوليد بن عبد الملك، منه أن يزوجه ابنته لولي عهده، وذلك من أجل تخفيف معارضة ابن المسيب لأسلوب الحكم آنذاك.

ولم يكتف الامام أحمد بن حنبل برفض هدايا وأموال السلطان، بل شمل هذا الرفض أبناءه وأقاربه، بإمتناعه عن تناول الطعام عندهم لأخذهم أموال السلطان، لأن هذه الأموال أعطيت لهم لقرابتهم منه.

«لما قدم أبي من عند المتوكل مكث قليلاً ثم قال: ياصالح، قلت: لبيك، قال: أحب أن تدع هذا الرزق فلا تأخذه ولا توكل فيه أحداً، قد علمت أنكم إنما تأخذون هذا بسببي، فإذا أنا مت فأنتم تعلمون. فسكتت فقال: مالك؟ فقلت: أكره أن أعطيك شيئاً بلساني وأخالف إلى غيره فأكون قد كذبتك ونافقتك وليس في القوم أكثر عيالاً مني ولاأعذر،.. فقال: لاتفعل؟ فقلت. لا، فقال: قم فعل الله

[1] م.س، ص٢٣٣.

[2] الشكعة، مصطفى. الامام أحمد بن حنبل (بيروت: دار الكتاب اللبناني والمكتبة المدرسية، ١٩٨٣)، ط١، ص١٦٠.

بك، وفعل، ثم أمر بسد الباب بيني وبينه».[1]

إن الأفراد ليسوا متساويين في هذا الأمر، لأنهم لايملكون القدرة على رفض العطاء، والهدايا، فمن له زهد وورع أحمد بن حنبل؟!.

لقد شكى المتوكل منع الإمام أحمد بن حنبل أولاده من أخذ أموال السلطان، وهداياه.

«فعن محمد بن ابراهيم البوسنجي يقول: حكى لنا عن المتوكل أنه قال: إن أحمد ليمنعنا من بر ولده، وذلك أنه كان وجه إلى ولده، وإلى ولد ولده، وإلى عمه، بمال عظيم فأخذوه دون علم أحمد فلما بلغه ذلك أنكر عليهم وتقدم إليهم برده، وقال لهم: لم تأخذوه، والثغور معطلة غير مشحونة، والفيء غير مقسوم بين أهله.. وهجرهم من أجل ذلك المال».[2]

يرى الامام أحمد وجوب صرف الأموال على الثغور المعطلة والخالية من السلاح والعدة، وأن يقسم الفيء في أهله، وأن لاتصرف أموال الدولة بلا ضابط، وألا توضع في غير مكانها.

ومن الجدير بالذكر أن الامام أحمد لايرى أموال السلطان حراماً بل تنزه عن أخذها. «فعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: دخل علي أبي رحمه الله في مرضي يعودني فقلت ياأبة: عندنا شيء قد بقى مما كان يبرنا به المتوكل، أفأحج منه؟ قال نعم قلت: فإذا كان هذا عندك هكذا فلم لا تأخذ؟ قال: يابني ليس هو عندي بحرام ولكني تنزهت عنه».[3]

---

[1] ابن الجوزي، مناقب الامام أحمد بن حنبل، ص٣٨١.

[2] م.س، ص٣٨٤.

[3] م.س، ص٣٨٥.

النموذج الثاني: قبول الهدايا والأموال:

يمثل هذا النموذج عدد لابأس به من الفقهاء إن لم يكن أغلبهم فمن هؤلاء: الشافعي، ومالك، والبصري، وجعفر الصادق.. الخ.

١- موقف الامام مالك بن أنس من هدايا وأموال السلطان:

إن الامام مالك «لايتحوب في الآخذ من الخلفاء، لأنه مال المسلمين، ومن أحق به من أهل العلم الذين أوقفوا أنفسهم على تعليم الناس أمور دينهم؟، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وهم في ذلك كالجند قد أوقفوا أنفسهم لحماية الثغور من الأعداء لكيلا يثلموا فيها ثلمة ينفذون منها إلى الأمة، فإنه إذا كان الجند كذلك، فالعلماء لمنع الضلال ولئلا يثلم الدين الثلم الذي يصل إلى قلوب الأمة، فتزل بها قدم بعد ثبوتها».(١)

وفي أحد فتاويه بين أن الحاكم، لايملك المال الذي بين يديه، وعامله كالمعدم، فأفتى بصيام ثلاثة أيام، يصومها الرشيد نتيجة حنثة في اليمين مرة، فكان موقفاً، سياسياً، دينياً، جليلاً، يماثل موقف أبي حنيفة، عندما قال للمنصور، ماوصلني أمير المؤمنين من ماله فرفضت؟

لقد حنث الرشيد مرة في يمين، واستشار العلماء في ذلك فأجمعوا على أن عليه عتق رقبة [رقبة من مئات الرقاب التي يمتلكها]. فلما سأل مالكاً في اليمين، أفتى بما لم يفت به مجمع العلماء وقال: «عليك صيام ثلاثة أيام. فقال الرشيد لمالك في صيغة تشبه الاعتراض: أأنا معدم؟ ومضى قائلاً: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ ويمضي الرشيد موجهاً القول لمالك: فأقمتني مقام المعدم! فيقول مالك بشجاعة العلماء وثقة الفقهاء: ياأمير المؤمنين. كل مافي يدك ليس

(١) أبو زهرة. أحمد بن حنبل، ص٧٥.

لك. فعليك ثلاثة أيام».[1]

إن فتوى الامام مالك في كفارة اليمين لها جانبان:

- الجانب الأول: جانب فقهي وهو مايتعلق بالعقوبة الرادعة بحيث لايتكرر الخطأ مرة ثانية، فالصيام ثلاثة أيام، أصعب على حاكم يملك مئات الرقاب، من تحرير رقبة.

- الجانب الثاني: جانب سياسي، اقتصادي، يرى فيه أن هذه الأموال التي يتصرف بها الحكام كما يريدون، هي أموال المسلمين، وليست أموالهم الشخصية، الذين خلطوا المال العام والمال الخاص، فصار مال الأمة، مال حاكمها. إن الهدايا، والأموال التي أعطيت للامام مالك لم تسكته عن قول حق أو نهي عن منكر، لأنه يرى أن هذه الأموال التي يأخذها، هي من حقه، وحق طلابه الذين كان ينفق عليهم، ونصيبهم في بيت مال المسلمون. «.. لقد أجزل له الخلفاء العطاء... ووقع في ثنايا الأخبار مايحدث أنه أصاب من هؤلاء العباسيين نحو عشرين ألف دينار، فالمنصور المشهور بالشح، يصله بستة آلاف، أو خمسة، وكسوة سنية، ومعها ألف لابنه محمد..».[2]

أما الأخذ ممن دون الحكام، ففيه شيء من الذل، والتحرج، «فقد سئل عن الأخذ من السلاطين فقال: أما الخلفاء فلا شك يعني أنه لابأس به - وأما من دونهم فإن فيه شيئاً.. ولقد سئل كثيراً عن هدايا السلطان، فكان يقول لسائله: لاتأخذها. فيقول له أنت تقبلها، فيقول: أتريد أن تبوء بإثمي وإثمك».[3]

لعل سلوك الامام مالك كان أكثر واقعية، من غيره خاصة المتطرفين

---

(1) الشكعة، مصطفى. الامام مالك بن أنس، ص٥٢.

(2) الخولي، أمين. مالك تجارب حياة، سلسلة أعلام العرب (١١)، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي (القاهرة [د.ن] و[د.ت]) ص٢٧٧ لم يعزوه لأحد.

(3) أبو زهرة، الامام مالك، ص٤٠.

والمتشددين من الفقهاء.

وهو يختلف في موقفه بالنسبة لهدايا وأموال السلطان، مع موقف أحمد بن حنبل، وأبي حنيفة، والثوري.

٢- موقف الامام الشافعي والامام جعفر الصادق من هدايا وأموال السلطان:

لقد كان الامام الشافعي من الذين يقبلون الولاية، ويأخذون العطاء، ويتصدقون به، «فيرى أن إقامة العدل واجبة، فلو دعي لإقامته، ولو كان الداعي له غير عادل في ذاته، تقدم، لأنه ان عمل لايعمل لحساب من ولاه، وإنما يعمل لله. ولايغض من عدالته أن يكون من ولاه غير عادل.. أما أحمد ومثله أبو حنيفة فقد كانا يريان التولي من قبل الظالمين معاونة لهم..».[1]

لقد عاش الامام الشافعي فقيراً معدماً، ويبدو أثر ذلك في شعره، فكان يأخذ العطاء، ويتصدق به على الفقراء والمحتاجين، «فكان يأبى أن يأكل من أي عطاء إلى أن خرج له في مصر عطاؤه من بني المطلب الذي كان خمس الخمس من الغنائم».[2]

أما الامام جعفر الصادق «فقد كان يأخذ من الحكام حظ بني هاشم من الأموال».[3]

وبالرغم من ذلك لم يصدق على الفقهاء أن من يأكل مال السلطان يضرب بسيفه!

---

(١) أبو زهرة، تاريخ المذاهب الاسلامية، ص٥٠٨.

(٢) م.ن، ص٥٠٩.

(٣) البدري، عبد العزيز، الاسلام بين العلماء والحكام. (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٩٦٦) ط١، ص١٢٦.

المبحث الثالث

مرهبات السلطان (المحن)

في البداية لابد من طرح سؤال هام. لماذا ينزل السلطان المحن بالفقهاء؟ وكيف يمكننا تفسير المحنة، بظروفها السياسية والاجتماعية والعقلية؟

إن محاولة السلطان شراء ذمة الفقيه، وتقزيمه اجتماعياً، ودينياً كثيراً ماباءت بالفشل، لذا لابد له من سلوك شكل آخر من المعاملة وهذا السلوك يتميز باستخدام القوة، بدل المال، عسى أن يستجيب له الفقيه في السكوت عن الحديث، أو تبرير عمل غير شرعي، لتحقيق شيئاً من الاستقرار الالزامي، والشرعية القاهرة، فيبقى وحيداً في الساحة السياسية الاجتماعية، لأن إبعاد الفقيه، أو تحجيمه كفرد من العامة، يوقف امتزاج الديني بالسياسي، ويبقى السياسي مستقلاً، ومشرفاً وحامياً لما هو ديني، وبذلك يستطيع الحاكم، إزالة خصومه من الساحة. خاصة من يشعر أن لهم دوراً قيادياً في المجتمع كالفقهاء والقضاة.. الذين ينافسونه السلطة الشعبية، مما يجعل العلاقة متأزمة، ولو لم يظهر هذا التأزم على سطح الحياة الاجتماعية.

فالسلطان يملك جميع أدوات وأساليب القهر والاضطهاد، بينما للفقيه مكانته الاجتماعية وفتاويه الفقهية، ودروسه الدينية، التي يتخللها شيء من التحريض ضد الحاكم الظالم، كل ذلك مما يثير الحاكم ويقلقه، وهو الذي يسعى إلى أن يعرف حتى دبيب النمل في ملكه، لو استطاع، مما يعطيه استقراراً اجتماعياً، ونفسياً، بأنه لايزال يحافظ على وحدة الجماعة، وطاعتها له، واستقرارها تحت سلطته.

لقد وقع الفقهاء بين حدين، الأول: طاعة أولي الأمر في المعروف، والثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي الحد الثاني سيعترض السلطان على هذا السلوك، لأنه يراه من اختصاص الدولة، وبه يتحول الديني إلى السياسي.

أمام هذا الواقع انقسم الفقهاء إلى ثلاث فئات من حيث علاقتهم بالسلطان:

١- الفئة الأولى:

لقد أخذت ظاهر النص، فاختارت الإتباع، والانقياد والطاعة للحكام، على أي شكل كانوا، فخالطت الحكام، وتولت المناصب، وألفت كتباً في الأحكام السلطانية، مبررة الغلب في الحكم، والملك بدل الخلافة، وأنه ليس بالإمكان، أحسن مما كان، وعلى المسلمين أن يسلموا بقدر الله عليهم لأن الأمر الواقع، هو أفضل مايمكن. وهؤلاء ماأكثرهم على مر التاريخ.!

٢- الفئة الثانية:

انسحبت من الواقع، معتزلة الحياة السياسية، ومفسرة ظلم الحكام، أن أساسه ظلم الرعية بعضها البعض، مؤثرة السكوت، والبعد قدر الإمكان عن مخالطة السلطان، حتى أن بعضهم يتمنى أن يؤخذ بصره، على أن يملأه من وجه ظالم!؟ واعتبروا القرب من السلطان، بعداً عن الله ودينه، وأن السلطان كالنار تحرق كل من يحاول الاقتراب منها.

٣- الفئة الثالثة:

وهي أكثر الفئات معايشة للحاكم، كند، وليس كصاحب فضل، ويد عليهم، فقد «اختارت هذه الفئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمضته بدرجات متفاوتة في الضعف والشدة. وهي المداخلة للسياسي المخالطة للاجتماعي المجاوزة لغيرها من الفئات، الدافعة بالدين إلى دائرة الصراع الصريح أو الخفي حول الغايات وحول السلطة نفسها. وقد مثل هذه الفئة فريق نشط من أصحاب

الحديث والسنة من الداعين إلى مذهب السلف والوقوف عند الكتاب والسنة. ومثلها أيضاً الجناح التقوي في الاعتزال، وبعض المتصوفة والزهاد».[1]

مهما حاول الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، أن يكونوا حيادين تجاه السلطة السياسية القائمة فلن يستطيعوا، لأنهم مشاركوها في إحدى وظائفها.

«... ولم يكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأداة الحيادية. فخطورته الكبرى تكمن في أنه يحول (الديني) إلى (سياسي) مرة واحدة، أو أنه يجعل من الديني ذا طبيعة سياسية، وذلك بسبب مايجسده فعل الأمر وفعل النهي من انتقال من (الفردي) إلى (الاجتماعي) ومن (الاجتماعي) إلى (السياسي).. وبسبب مايقوم عليه الأمر بالمعروف من (إثبات سلطنة وولاية واحتكام على المحكوم عليه). فالحقيقة هي أي فعل من الأفعال الشرعية الخاضعة للأمر أو للنهي لابد أن يتم، وفقاً لهذا المبدأ بالمنع بالفعل والابطال. ويستوي أن يكون هذا المنع للعبد وآحاد الرعية، أو للجماعة أو لمؤسسة الدولة، ففي جميع هذه الحالات ثمة خروج للآمر أو الناهي، أي للمحتسب من (خاصة نفسه) إلى خاصة غيره، أي من (الفردي) إلى (الآخر) الذي هو المجتمع.. وهنا نعبر الخط الفاصل بين الديني من حيث هو خاصة للمرء في نفسه إلى الديني من حيث هو خاصة للمجتمع بكامل أفراده أو ببعضهم. وحين يتم هذا نكون قد دخلنا فعلياً في دائرة (السياسي) والديني الاسلامي لايخرج عن هذا بتاتاً».[2]

إن المحن التي أصابت الفقهاء، ماكانت لتصيبهم لو أنهّم بقوا في دائرة الديني الفردي، ولم يتجاوزوا إلى دائرة الديني الجماعي، المرتبط بالسياسي الجماعي. وبذلك تداخلت الوظائف بين الديني والسياسي. لذا أنزل السياسي المحن بالفقهاء، حتى يبقى صاحب السلطة الاجتماعية الوحيدة، صاحب النهي والأمر

---

[1] جدعان، فهمي. المحنة بحث في جدلية الديني والسياسي في الاسلام، ص٣٣٨.

[2] م.س، ص٣٣١-٣٣٢.

الأوحد في الساحة الاجتماعية، ولايتم ذلك إلا بإقصاء من صارت لهم قوة شعبية موازية، يأمرون فيطاعون، وفيما يلي نماذج من هذه المحن:

١- محنة الامام أبي حنيفة:

أصيب الامام أبو حنيفة بأشكال متعددة من المحن، فمن منع من الإفتاء والتدريس، إلى الضرب والحبس، وربما الموت بالسم؟!.

استمرت محنة الامام أبي حنيفة في عهدين، نهاية العهد الأموي، وفي العهد العباسي. لقد فشل الحكام في كسب الامام إلى صفهم، بكافة أشكال الترغيب، مما جعلهم يتجهون إلى استعمال القوة، كالضرب والحبس، والمنع من الافتاء، وهذه المحن لابد لها من سبب مباشر ظاهري، أو غير مباشر بعيد عن الضوء.

فالسبب غير المباشر سياسي، يعود إلى حبه لآل البيت وتشيعه لهم، وكلنا مطالب بحب آل البيت فهل هذا تشيع؟ وهذا الحب المطلوب يجب أن لايكون بكره غيرهم. ومما زاد التفاف الناس حول آل البيت، كثرة مالاقوه من ظلم، واضطهاد، وقتل وتشريد نتيجة ظلم الحكام حيناً، ولخروج البعض منهم في حركات سياسية مطالبة بالسلطة، كالحسين، وزيد، ومحمد النفس الزكية وابراهيم أخيه.. الخ.

ومع ذلك لم يعرف للامام أبي حنيفة انتماء إلى فرقة معينة من فرق الشيعة، على الرغم من اتصاله بالامام زيد، كأستاذ له، وكذلك بالامام جعفر الصادق. «ويبدو أثر الامام زيد، واضحاً في فقه أبي حنيفة، لتقارب أرائه من آراء الزيدية».[(١)]

مادام أبو حنيفة يحسب على المناصرين لآل البيت، فسوف تلاحقه عيون الحكام، من بني أمية، ومن بني العباس، على السواء، في كل تصرف، أو افتاء،

---

(١) أبو زهرة. الامام أبو حنيفة. ص١٦٤-١٦٥.

يعارض فيها السلطة الحاكمة، وما أكثر المواقف التي اتخذها أبو حنيفة، وفيها دلالة واضحة لمعارضته السلطة القائمة، فمن الافتاء بجواز الخروج على السلطة القائمة إلى مد الخارجين بالمال، وتثبيط بعض قادة الدولة عن مواجهة الحركات الخارجية على السلطة.

لقد ناصر الامام أبو حنيفة أستاذه الامام زيد بن علي عندما خرج على هشام ابن عبد الملك سنة (١٢١هـ) حيث قال: «ضاهى خروجه خروج رسول الله ﷺ يوم بدر، فقيل له: لم تخلفت عنه؟ قال: حبسني عنه ودائع الناس، عرضتها على ابن أبي ليلى، فلم يقبل، فخفت أن أموت مجهلاً، ويروى أنه قال في الاعتذارعن عدم الخروج معه: لو علمت أن الناس لايخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام حق، ولكن أعينه بمالي، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم، وقال للرسول ابسط عذري له».[1]

يلاحظ أن للفقيه دوراً كبيراً في تثوير الجماهير الشعبية، فهو صاحب الفتوى التي تبيح الخروج، أو تمنعه، لذا يجب أن يكون حذراً فيما يصدر عنه من أقوال خاصة في زمن الفتن، فكيف لاتقع عليه المحن وهو يرى خروج الامام زيد هو الحق، ووجود الحاكم على رأس السلطة القائمة، هو الباطل وغير الشرعي؟ فلن ينتظر هذا الحاكم طويلاً، حتى يدبر للامام أبي حنيفة أي موقف يظهر فيه معارضته فيكون سبباً مقنعاً لإيقاع الأذى به على الرغم من سطحية الأسباب. لم يكتف الامام بالمساندة القولية لخروج الامام زيد، بل دفع مالاً اسهاماً منه في مساعدة الامام زيد على الصمود أكثر مايمكن، مع أنه يعلم أن الناس سيخذلونه كما خذلوا أباه من قبل؟.

إنه التناقض بعينه في سلوك الامام أبي حنيفة عندما يصف خروجه بمثل خروج

[1] المكي، الموفق ابن أحمد. مناقب أبو حنيفة، ج١، ص٢٣٩.

رسول الله يوم بدر، وأنه الامام الحق، ويعلـم أن نهايـة خروجـه معروفـة، فلـم لـم ينصحه بعدم الخروج، كما فعل غيره، عندما نصحوه بأن عاقبة الخروج ليسـت في صالحـه؟ فقـد رفـض الامـام أبـو حنيفـة أي عمـل، أو ولايـة، كلفتـه بهـا السـلطة الحاكمة.

«كان أبن هبيرة والياً بالكوفة في زمان بنـي أميـة، فظهـرت الفـتن في العـراق. فجمع فقهاء العراق ببابه، فيهم ابن أبي ليلى، وابـن شـبرمة، وداود بـن أبـي هنـد، فولى كل واحد منهم صدراً من عمله، وأرسل إلى أبي حنيفة فأراد أن يجعل الخـاتم في يده، ولاينفذ كتاباً إلا من تحت يد أبي حنيفة، فحلف ابن هبيرة إن لم يقبـل أن يضربه، فقال له هؤلاء الفقهاء: إنـا ننشـدك اللـه أن تهلـك نفسـك، فإنـا إخوانـك وكلنا كاره لهذا الأمر ولـم نجد بداً من ذلك، فقال أبو حنيفة: لو أرادني أن أعد له أبواب مسجد واسط لم أدخل في ذلك فكيف وهو يريد مني أن يكتـب دم رجـل يضرب عنقه؟ وأختم أنا على ذلك الكتاب فوالله لاأدخل في ذلك أبداً، فقـال ابـن أبي ليلى: دعوا صاحبكم، فهو المصيب وغيره المخطئ. فحبسه صاحب الشـرطة.. وضربه أياماً متتالية فجاء الضارب إلى ابن هبيرة وقال له إن الرجل ميت، فقال ابن هبيرة: قل له تخرجنا من يميننا، فسأله، فقال: لو سألني أن أعـد لـه أبـواب المسـجد مافعلت. ثم اجتمع الضارب مـع ابـن هبـيرة، فقـال: ألا نـاصح لهـذا المحبـوس أن يستأجلني فأؤجله؟ فأخبر أبو حنيفة بذلك، فقال دعوني استشر إخواني، وانظر في ذلك، فأمر ابن هبيرة بتخلية سبيله، فركب دوابه، وهرب إلى مكة، وكـان هـذا في سنة (١٣٠هـ) فأقام في مكـة حتـى صـارت الخلافـة للعباسـيين، فقـدم أبـو حنيفـة الكوفة في زمن أبي جعفر المنصور».[1]

يلجأ الحاكم أحياناً، إلى توظيف الفقهاء والعلماء في مناصب هامـة في الدولـة،

[1] المكي. مناقب أبي حنيفة، ص٢٧٥.

بحيث تبدو السلطة شعبية، شرعية وفق أوامر الدين ونواهيه، لكن من الغريب أن يضرب الفقيه لرفضه المنصب؟ وهل من المعقول أن سبب الضرب والسجن هو عدم اشغاله للمنصب المعد له من قبل الحاكم؟! هذا على السطح، أما في العمق، فأبو حنيفة ممن عارضوا الدولة الأموية.

وفي حال تمسك الفقيه بموقفه، رغم محاولة إرغامه على القبول فإن السلطان يسهل لمعارضيه مغادرة البلاد فيكف رجاله عن مراقبتهم، أو تهجيرهم بشكل مباشر، وبذلك يتخلص السلطان من الموقف المحرج الذي وضع فيه.

«إن أهل الموصل كانوا قد انتفضوا على المنصور، وقد اشترط المنصور عليهم أنهم إن انتفضوا تحل دماؤهم له، فجمع المنصور الفقهاء، وفيهم أبو حنيفة، فقال: أليس صح أنه ﷺ قال: المؤمنون عند شروطهم، وأهل الموصل قد اشترطوا ألا يخرجوا علي، وقد خرجوا على عاملي، وقد حلت لي دماؤهم، فقال رجل: يدك مبسوطة عليهم، وقولك مقبول فيهم، فإن عفوت فأنت أهل العفو، وإن عاقبت فبما يستحقون. فقال لأبي حنيفة: ماتقول أنت ياشيخ؟ ألسنا في خلافة نبوة وبيت أمان؟ قال: إنهم شرطوا لك مالايملكونه وشرطت عليهم ماليس لك، لأن دم المسلم لايحل إلا بأحد معان ثلاثة، فإن أخذت بما لايحل، وشرط الله أحق أن توفى به، فأمرهم المنصور بالقيام فتفرقوا، ثم دعاه، وقال: ياشيخ، القول ماقلت، انصرف إلى بلادك، ولاتفت الناس بما هو شين على إمامك، فتبسط أيدي الخوارج».[1]

نجد بين سطور هذا النص، موقفين متناقضين، الموقف الأول: رجل يعطي للحاكم حق التصرف كما يشاء في رعيته ورأي هذا الصنف لايهم الحاكم لأنه يعرفه مسبقاً، أما الموقف الثاني: فكان موقف رجل يقيس أمور السياسة على

---

[1] المعروف بالكردري، حافظ الدين بن محمد. مناقب أبي حنيفة (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨١)، ج٢، ص٢٩٧.

حدود الشريعة، لأن هناك خطوطاً حمراء يجب أن لاتتعداها السياسة. خاصة في الدماء والأرواح، فكان موقفاً معارضاً، إلا أنه صحيحاً لم يستطع الحاكم أن يعارضه، بل طلب إليه عدم الافتاء، بما يثير الفتن، ويؤيد حركات الخوارج. وطلب المنصور هذا من أبي حنيفة، دلالة على أهمية موقف الفقيه، وأثر فتواه في الجموع الشعبية.

«كان الامام يجهر بمناصرة محمد النفس الزكية في دروسه، بل وصل الأمر أن ثبط بعض قواد المنصور – الحسن بن قحطبة – عن الخروج لحرب محمد النفس الزكية.. وهذا العمل في نظر المنصور من أخطر الأعمال على دولته، لأن أبا حنيفة تجاوز حد النقد المجرد، والولاء القلبي، إلى العمل الايجابي من خلال فتاويه المعارضة للمنصور».[1]

لقد توالت المحن على الامام من قبل المنصور، فكانت تحت أسباب واهية، إلا أنها في الحقيقة رد فعل من الحاكم تجاه فقيه لايعترف بشرعية حكمه، بل يناصر الخارجين عليه ويعتبرهم شرعيين.

«فقد عرض المنصور على الامام أبي حنيفة أن يكون قاضي بغداد.. فإذا قبل كان دليلاً على الطاعة، وشرعية الحاكم، وإذا رفض كان ذريعة للحاكم للنيل منه أمام العامة من غير حريجة دينية، لأنه إذا كان فاضلاً في نظرهم، فامتناعه امتناع عن واجب في عنقه، فليحمل على ذلك الواجب ببعض الأذى ينزل به وماينزل به من أذى إنما هو لإكراهه على ماهو في مصلحة الناس أجمعين، لا للكيد له، ولا لظلمه..، وذلك لأن المنصور كان لايحب أن يظهر بمظهر المضطهد للعلم والعلماء، وإذا كانت الحوادث قد اضطرته لإنزال الأذى بأبي حنيفة، فقد وجد مبرراته..».[2]

---

[1] أبو زهرة. الامام أبو حنيفة، ص٣٨-٣٩ بتصرف.

[2] م.س، ص٤٦-٥٠ بتصرف.

لقد رفض أبو حنيفة منصب قاضي القضاة، إلا أن المنصور أنزل به أشد أنواع العذاب، وهل يعقل أن يكون الضرب لعدم قبوله هذا المنصب الهام؟ مع العلم أن الحاكم عندما يريد أن يولي أحداً منصباً هاماً، فأول الشروط أن يكون المرشح لهذا المنصب راضياً عنه، وإلا فيقوم الحاكم بترغيبه فيه، وليس بضربه؟!.

«إن أبا جعفر حبس أبا حنيفة على أن يتولى القضاء، ويصير قاضي القضاة، فأبى حتى ضرب مائة وعشرة أسواط، وأخرج من السجن على أن يلزم الباب، وطلب منه أن يفتي فيما يرفع إليه من الأحكام، وكان يرسل إليه الرسائل، فلا يفتي، فأمر أن يعاد إلى السجن فأعيد وغلظ عليه، وضيق تضيقاً شديداً».[1] لم يتراجع الفقيه أمام السلطان، وكذلك السلطان لايزال يمارس كل أشكال قوته، ولهذا تم التحدي بين القوتين.

و«.. بعد أن حبس وضيق عليه مدة كلم المنصور بعض خواصه، فأخرج من السجن، ومنع من الفتوى، والجلوس للناس، والخروج من المنزل، فكانت تلك حالته إلى أن توفي».[2] يبدو أن المنصور كان مذعوراً من فتاوي أبي حنيفة، حتى شدد عليه بالإقامة الجبرية في منزله حتى وفاته.

ويستمر التحدي، والمعارضة من قبل الفقيه للسلطان حتى بعد وفاة الفقيه. فقد «أوصى بأن يدفن في أرض طيبة لم يجر عليها غصب، وألا يدفن في أرض قد اتهم الأمير بأنه غصبها، حتى يروى أن أبا جعفر عندما علم ذلك، قال: من يعذرني من أبي حنيفة حياً وميتاً».[3]

«.. لقد صلى أبو جعفر على قبر الامام بعد دفنه، ولاندري أكان ذلك إقراراً منه بعظمة الخلق والدين، وجلال التقى، أم لإرضاء العامة؟ ولعله مزيج من

---

[1] المكي. مناقب أبي حنيفة، ج١، ص٤٣١.

[2] م.ن، ج٢، ص١٥.

[3] أبو زهرة، الامام أبو حنيفة، ص٥١.

الأمرين». [1]

فهل من المعقول أن تكون هذه المحنة، لعدم قبول الامام أبي حنيفة منصب القضاء؟، أم أن هذا على السطح، وهناك في الأعماق صراع خفي بين القوتين، الدينية، والسياسية، وقلق سياسي، تجاه آراء ومواقف الديني.

إنها جدلية، الطاعة، والمحاسبة، ومن يقوم بهذه المحاسبة؟ السياسي أم الديني.

٢- محنة الامام مالك بن أنس:

لقد عاش الامام مالك في الدولتين الأموية، والعباسية، مما جعله شاهداً على عدد من الثورات المسلحة ضد السلطة الحاكمة.

فكان موقفه من الخروج، أنه غير جائز لما فيه من الفتن والاضطراب، لكن له موقفاً علمياً، يجيز فيه الخروج على الحاكم الظالم، وذلك عندما سئل عن خروج محمد النفس الزكية على المنصور. فقال «إذا كان خرجوا على مثل عمر ابن عبد العزيز. فلا. فقال سائله: فإن لك يكن مثله، فقال: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما». [2]

أصيب الامام مالك بالمحن، كغيره من العلماء في المدينة المنورة سنة (١٤٦هـ)، أيام المنصور على يد والي المدينة جعفر بن سليمان، إذ قام بضربه بالسياط حتى خلعت كتفه.

ويعود سبب المحنة، لفتوى تعتمد على رواية حديث أراد المنصور منه أن يسكت عنه فلم يفعل، «فقد كان يحدث بحديث: (ليس على مستكره طلاق) وأن مروجي الفتن اتخذوا من هذا الحديث حجة لبطلان بيعة، أبي جعفر المنصور، وأن هذا الحديث قد ذاع وشاع في وقت خروج محمد النفس الزكية بالمدينة، [على الأغلب من قام بإذاعة هذا الحديث، مناصروا محمد النفس الزكية] وأن المنصور

---

[1] م.ن، ص.ن.

[2] أمين، أحمد. ضحى الاسلام، (بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت])، ج٢، ص٢٠٧.

نهاه عن أن يحدث بهذا الحديث، ثم دس عليه من يسأله عنه، فحدث به على رؤوس الناس، فضربه..».[1]

لم يستطع المنصور اسكات الامام مالك، بعدم رواية هذا الحديث لأن فيه تبريراً لخروج الناقمين وإدانة لسلطة قائمة تملك كل أشكال القهر والاضطهاد. لم يستغل الامام مالك رواية هذا الحديث في زمن الفتنة، وخروج محمد النفس الزكية، بالمدينة ليتحلل الناس من بيعتهم لأبي جعفر، لأنها أخذت بالإكراه إنما كان يحدث به إفشاء للعلم خوفاً من كتمانه، ولم يقصد من وراء ذلك إرضاء حاكم أو اغضابه، ولم ينطلق من غلبة هوى. ومع هذا فإن الحديث فسر على وجهين: الوجه الأول: افتاء مالك بجواز الخروج على المنصور، وفي هذا تأييد للخارجين عليه، وهذا الحديث يؤيدهم، فنشروه واعتبروه حكماً شرعياً في التحلل من البيعة لأبي جعفر المنصور.

أما الوجه الآخر: فقد كان المنصور وحاشيته يرون أن التحدث بهذا الحديث وفي هذا الوقت بالذات، إنما هو إثارة للفتنة، وإصباغ الصفة الشرعية عليها، عندما رفض الامام الاستجابة لطلبه بالسكوت عن هذا الحديث تأكد لديهم، ماكان ظناً فيما وراء الرواية لحديث رسول الله ﷺ. فلو قيل هذا الحديث في زمن لا خروج فيه لما أثار كل هذه الضجة.

والامام بريء من الدعوة إلى الفتنة لأن سلوكه الحياتي يخالف هذا الاتهام، «... إن هؤلاء العلماء الفقهيين يمثلون سلطة الشعب، راضين أو كارهين، متنبهين في وعي أو غير متنبهين، لأنهم لابد متحدثون عن الواجبات، والحقوق، لكل من المحكومين والحاكمين، وهم لابد مفتون في هذا عند كل مناسبة.. ولذلك يعتبر تاريخ هذه المحن هو صفحات تاريخ السلطة الشعبية، ضد الحاكم المستبد المتفرد،

---

[1] المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر. (طهران: مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان ١٩٧٠) ط٢، ج٦، ص٢٩٤.

وهي بذلك صفحات في تاريخ الحرية الفكرية، لأن المسألة تبدأ وتنتهي عند قول يراد إخفاؤه والإجبار على كتمانه».[1]

إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه: من الذي أنزل المحنة بالامام مالك، الوالي أم الحاكم الأعلى؟

«الظاهر من مجموع الأخبار أن الذي تحمل وزر المحنة في ظاهر الأمر، هو الوالي وأن كل الظواهر تشير إلى أنه فعل ذلك من تلقاء نفسه، ونحن لانستطيع أن ننفي أن يكون ذلك بعلم ورضا المنصور الداهية، الذي كان على علم بمايجري داخل دولته، وخاصة مابين كبارها، وأن الذي كان على علم بداخل بيت مالك، حتى أنه كان يعرف بجوع ابنته، التي تبكي من شدة الجوع، فما كان يجهل، ولكنها السياسة تحمل بعض الناس أثم الفعل، وتجعل للمسيطرين فرصة البراءة».[2]

إن قدر مالك ومكانته في نفوس الأمة جعلت المنصور يعتذر إليه من فعل واليه، وأنه لا علم له بما حدث إنها مكائد السياسة. في وجه المعارضة الشعبية، فالإمام لم يدع إلى مناصرة الخارجين على الدولة، ولم يكن له موقف عدائي من السلطة القائمة، وهذا ماجعل المنصور، الداهية يستدعي الامام مالكاً، عندما جاء إلى الحجاز حاجاً ليعتذر إليه، «لما دخلت على أبي جعفر المنصور، وقد عهد إلي أن آتيه في الموسم. قال لي: والله الذي لا إله إلا هو ماأمرت بالذي كان ولا علمته، إنه لايزال أهل الحرمين بخير ماكنت بين أظهرهم، وأني أخالك أمانا لهم من عذاب. ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة، فانهم أسرع الناس إلى الفتن، وقد أمرت بعدو الله أن يؤتى به من المدينة إلى العراق (والي المدينة الذي أنزل المحنة بالامام) على قتب، وأمرت بضيق محبسه، والاستبلاغ في امتحانه ولابد أن أنزل به من العقوبة أضعاف مانالك منه.. فقلت: عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه، قد

---

[1] الخولي، أمين. مالك تجارب حياة، ص٣٠١-٣٠٢.

[2] أبو زهرة، مالك حياته وعصره، ص٦٣.

عفوت عنه لقرابته من رسول الله ﷺ، وقرابته منك، قال: فعفا الله عنك ووصلك». (1)

لقد اعتذار أبو جعفر المنصور، من الامام مالك، ووضعه في مكانة اجتماعية عالية وربط بين وجوده في الحجاز وبين الخير والأمان اللذين يعيشون بهما أهل الحجاز لكن لم كل هذا الاعتذار للامام مالك؟ وكل ذاك الاضطهاد، والسجن والضرب للامام أبي حنيفة؟ والحاكم في كلا الموقفين هو أبو جعفر المنصور! يبدو أن السبب يعود لعدم وجود خلفية سياسية للامام مالك، وعدم مناصرته للخارجين على السلطة، بينما نجد العكس في موقف الامام أبي حنيفة من السلطة القائمة، ومناصرته للخارجين عليها قولاً وعملاً.

٣- محنة الامام الشافعي:

إن اختلاف الامام الشافعي مع والي اليمن آنذاك، عندما حاول الشافعي أن يأخذ على يديه، ويمنع مظالمه، هذا الخلاف هو سبب المحنة المباشر، ولايوجد دليل اتهام ضد الشافعي، سوى أنه يحب آل البيت ويعلن هذا الحب والولاء، ويكفي الوالي الظالم أن يتهم الشافعي بأنه مؤيد للعلويين، الذين يحاولون إثارة الفتن، والخروج على الحاكم، حتى يلقى أقسى أنواع العقوبات، وربما القتل.

حاول والي اليمن التخلص من الشافعي بتلفيق التهم السياسية ضده، «.. فأرسل إلى الرشيد، إن تسعة من العلوية تحركوا، ثم قال في كتابه: أني أخاف أن يخرجوا وإن هاهنا رجلاً من ولد شافع المطلبي، لا أمر لي معه ولا نهي. ويقول الرواة أنه قتل التسعة، ونجا الشافعي بقوة حجته، وشهادة محمد بن الحسن، أما قوة الحجة فكانت بقوله للرشيد، وقد وجه إليه التهمة بين النطع والسيف: ياأمير المؤمنين ماتقول في رجلين أحدهما يراني أخاه، والآخر يراني عبده، أيهما أحب

(1) م.ن، ص٦٤.

إلي؟ قال الرشيد: الذي يراك أخاه، قال: فذاك أنت ياأمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد علي، ونحن بنو المطلب فأنتم ولد العباس تروننا إخوانكم، وهم يروننا عبيدهم». [1]

بتهمة تمكن والي اليمن من الخلاص من معارضيه، فقضى تسعة منهم شهداء، أما العاشر فكان الامام الشافعي، الذي نجا، وذلك بسببين، الأول: شهادة عالم وفقيه له بأنه من أهل العلم، والثاني: إقناعه الرشيد بأنه يراه أخاه بينما أولاد علي، المتهم بالتشيع لهم، يرونهم عبيدهم، فالولاء للأخ وليس للسيد.

إن محبة آل البيت يجب أن لاتكون سبباً لإنزال المحن، ولو كان كذلك فإن المسلمين جميعاً متشيعون لآل البيت، وهذا غير منطقي، إن المحبة لآل البيت لاتعني كراهة الآخرين، ولاتعني شرعية تصرفاتهم، وعدم شرعية تصرفات الآخرين!.

لعل محنة الامام الشافعي هي أبسط محنة أصابت فقيه، على الرغم من احضاره مكبلاً مقيداً، من بلاد اليمن إلى بغداد، ثم أفرج عنه لاحقاً.

٤- محنة الامام أحمد بن حنبل:

لايكاد يخلو كتاب يؤرخ للدولة العباسية، ويبحث في الفكر الاسلامي، إلا ذكر المحنة التي أثارها المأمون في عام (٢١٨هـ) واستمرت في عهدي المعتصم والواثق، حتى عام (٢٣٤هـ)، هذا من حيث دولة المحنة وزمنها، والحكام الذين نفذوها، أما الذين أصابتهم، فهم كالعادة الفقهاء والقضاة والمحدثين، وكان من أشهرهم الامام أحمد بن حنبل ومما يؤسف له أن الذين اتهموا بأنهم أثاروها، هم المعتزلة، أصحاب الاتجاه العقلي في الفكر الاسلامي، ودعاة الحرية، والتنوير، إلى جانب الحاكم المثقف المأمون، صاحب بيت الحكمة، ومقرب العلماء، وناشر المعرفة بوزنها ذهباً، ومثال اجتماع الثقافة والسلطة السياسية في يد واحدة. فهل

[1] أبو زهرة، محمد. الامام الشافعي. ص٢١-٢٢.

كان سبب المحنة قضية عقيدية، أم سياسية؟.

لقد كان السبب المباشر للمحنة هو قضية (خلق القرآن)، وفيها أول مرة تتدخل الدولة بشكل مباشر وسافر في قضية دينية، وهي من الفروع، فأجبرت معارضيها في الرأي على الاعتناق ماتراه، وهو بأن القرآن مخلوق، وإلا أصابهم كل أشكال القهر والاضطهاد، وقضية خلق القرآن هي رد على قول المسيحية بقدم الكلمة، التي أثيرت من أجل زعزعة عقيدة المسلمين، وتشكيكهم في توحيدهم الخالص، فإما القول بخلق القرآن، أو الحبس، والضرب، والقتل... الخ. لأن القائلون بخلق القرآن - وهم المعتزلة - يريدون أن يصلوا إلى حقيقة أن لا قديم إلا الله، فإذا كان القرآن غير مخلوق، صار قديماً، وبهذا تناقض مع عقيدة المسلمين، لأن صفة القدم هي لله وحده، هذه التفسيرات لأسباب المحنة ظهرت على السطح، أو أظهرها السياسي على السطح.

لكن «ماالذي حمل الخليفة المأمون على (امتحان) الأئمة والعلماء والحكام والقضاة والفقهاء في القول بخلق القرآن؟ إنه الخوف من هذه الرموز التي أصبحت تجسد قوة رئاسية موازية لملكه، تقود قوة غير مباشرة تهدد الدولة ذاتها.

لقد كان يجتمع في مجلس يزيد بن هارون عدة آلاف من أفراد الرعية، وفي مجلس أحمد بن حنبل كان العدد يجاوز خمسة آلاف. وحين مات أحمد بن حنبل مسحت الأمكنة المبسوطة التي وقف الناس عليه للصلاة عليه فحزر مقادير الناس بالمساحة على التقدير (ستة مئة ألف) أو أكثر سوى ماكان في الأطراف. وقدر بعضهم عدد المشاركين في الصلاة على الجنازة بأكثر من (ألف ألف) سوى من كان في السفن. أما النساء اللواتي تجمعن على القبور فبلغ عددهن (ستين ألف) امرأة. وسواء كانت هذه الأرقام مطابقة للواقع أم لا؟ فإنها في كل الأحوال تكشف بصورة ملموسة منظورة عن حجم القوة الموازية التي كانت تقابل قوة الخليفة.. نازعتها في الوقت نفسه السيادة والسلطة على آحاد الرعية وجماعاتها..

وإلا فما معنى ماهتف به المأمون في وصيته لخليفته المعتصم: الرعيـة الرعيـة! العـوام العوام! فإن الملك بهم..؟ ومن الطبيعـي أن يثير الصراع حـول الغايـات والسـلطة هواجس الدولة الحـادة وفزعهـا الشـديد إذ تجـد نفسـها مقابلـة بقـوة موازيـة غـير مباشرة، عظيمة العـدد قـد انفصلـت عمليـاً عـن الحظيرة، وكفـت عـن أن تكـون صديقاً يعزز شروط الطاعة والاتباع والانقياد، لتصبح عدواً يولد المخاوف الكبـار، وليس الامتحان إلا هذه العملية السياسية التي فرضها منطق الدولة في دائرة الجدليـة التي تحكم الأمر والطاعة، والصديق والعدو، من أجل رد قوة الرعية الموازية أو غـير المباشرة، وهي العدو إلى ساحة السمع والطاعة.. إن المنطق الذي يتحكم في جدليـة الديني والسياسي في الاسلام هـو أن الديني والسياسـي كليهمـا يتعلقـان بالسـلطة ويجعلانها قاعدة مادية وجهازاً يتحقق به كل منهما ماهيتـه وغاياتـه. وأنـه في كـل مرة يصل الديني إلى أن يصبـح قـوة غـير مباشـرة أو موازيـة ذات إمكـان فعـال في الجماعة فإنه سيتحول إلى سلطة تنازع السياسي غاياته وسلطته».[1]

لكننا نتسائل لماذا لم يوقـع المحنـة بهـؤلاء القـادة الشـعبين مباشـرة علـى أنهـا معارضة سياسية؟. وما الذي ألجأ المأمون إلى اضطهاد معارضيه، أو من يخشـاهم في الساحة الاجتماعية إلى اللجوء إلى قضيـة دينيـة؟ وهـل النتـائج التـي وصلـت إليهـا عملية المحنة هي المرتجاة من إثارتها؟.

«... كان على المأمون أن يختار، بالضرورة سـلاحاً دينيـاً خالصـاً، لأنـه كـان يعلم أن أي سلاح سياسي دنيوي يمكن أن يختاره سيكون عاجزاً مطلقاً عن تسويغ نفسه في وجه الآمر الشرعي، أو الديني الذي تتطلبه الكافة ممن يرجو تسـويغ فعلـه عندها. والمأمون والخلفاء جميعاً كانوا يعلمون أن حجة الدينـي في الاسـلام، أقـوى من حجة الدنيوي، وأن مايمس دين الله أخطر بكثير ممـا يمـس ملـك النـاس، سـواء

---

[1] جدعان، فهمي. المحنة بحث في جدلية الديني والسياسي في الاسلام. ص٣٥٣، ٣٥٤.

أكان هذا الملك ملك بني العباس أم ملك غيرهم».[1]

«ولكـي لايبـدو المـأمون بامتحانه ذاك جبـاراً ظالمـاً متعديـاً في أعـين طوائـف المسلمين المختلفة حشد الجيوش لحرب الكفار من الـروم، وراح يجـاهد أعـداء اللـه والدين في عقر دارهم، ويوجه الامتحان في قلب معركة الجهاد، ويصـور للجميـع أنه يجاهد الكفار في الخارج وفي الداخل على حد سواء».[2]

ويبدو أن المأمون يعرف مسبقاً من يقوم بمعارضته في قضية خلـق القـرآن إنهـم أصحاب الحديث والسنة، الذين صارت لهم قوة غير مباشرة، وموازية لقوته وظـن أنهم سيستسلمون له، وبذلك يسقطون في نظـر اتبـاعهم مـن العامـة فقـد «اختـار المأمون قضية دقيقة تمس معقـد العصـب هـي مـن أبغـض المسـائل إلى نفـوس أهـل التقوى والدين والحديث، قضية عرف من قبل الارتكاسات المتوقعة عند مـن يمكـن أن يعرضهم للإمتحان فيها ممن ينتمـون إلى أصحـاب الحديـث والسـنة. فقـد كـان هؤلاء من قبـل أن يشـرع المـأمون في امتحـانهم، يكفـرون الجهمية القـائلين بخلـق القرآن من أمثال بشر المريسي وغـيره، ومـن الطبيعـي أن تكـون اسـتجاباتهم عنـد الامتحان متوافقة مع غرض المأمون من الإمتحان».[3]

«.. فالمأمون إذن إذ اختار أن يمتحن رؤساء أهـل الحديـث والفقـه ومـن بيـده سلطة أو سلطان إنما كان يهدف إلى رد القطيع إلى الحظـيرة، أي رد الجماعـة، أي العامة، إلى الملك، لأنه لا قـوام للملـك بـدون انصيـاعهم وطـاعتهم لأمـرة الخليفـة والدولة. والمأمون إذا امتحن أهل الدين ممن كان يتوجس فيهم قلة الـولاء والطاعـة إنما كان يتوسل، بإجابتهم في الإمتحان إلى أن يسقطوا في أعين العامة فيظهر عندها بجلاء أنهم ليسوا ممن يوثق بدينه وبرئاسته. ولم يدرك أحد هذا الأمر مثلمـا أدركـه

---

[1] م.ن، ص٢٨٤.

[2] م.ن، ص٢٨٣.

[3] م.س، ص٢٨٤.

أحمد بن حنبل لذا فإنه أصر إصراراً عظيماً على عدم الإجابة أي على العصيان الكامل، فطالت محنته وتردد فيها بين أيدي ثلاثة خلفاء وهو مالم يحدث إلا لقلة قليلة من الممتحنين، وبخاصة أولئك الذين حبسوا فظلوا في الحبس حتى قضوا فيه». (١)

لقد علل الامام أحمد بن حنبل عدم الاجابة في المحنة بقوله: «إذا أجاب العالم تقيه، والجاهل يجهل، فمتى يتبين الحق؟». (٢)

إنه شعور بالقيادة الدينية، لذا كان أميناً على هذه القيادة بالرغم مما أصابه من أنواع العذاب. فكان حقاً إمام أهل السنة، وقائداً شعبياً أقلق السلطان أشد القلق.

أما صورة المحنة التي أصابت الامام أحمد بن حنبل، فكانت متنوعة الأساليب: فمن الضرب، والحبس، إلى الإقامة الجبرية في منزله ومنعه من التدريس.

لقد امتدت المحنة أفقياً لتشمل قضاة وفقهاء مصر والشام، بل شملت جميع أهل الحكم، فأصبح الولاء للدولة يقاس بمعرفة رأي الفرد في قضية خلق القرآن، إلا أن آثار المحنة امتدت خارج حدود الدولة لتشمل أسرى المسلمين في بلاد الروم، فكان ثمن اطلاق حريتهم القول بخلق القرآن.

«وحضر هذا الفداء مع خاقان، رجل يكنى أبا رملة، من قبل أحمد بن أبي داود قاضي القضاة، يمتحن الأسرى وقت المفاداة فمن قال منهم بخلق التلاوة فودي به وأحسن إليه، بدفع دينارين له، ومن أبى ترك بأرض الروم، فاختار جماعة من الأسرى الرجوع إلى أرض النصرانية على القول بذلك، وأبى أن يسلم الانقياد إلى ذلك، فنالته محن ومهانة من الكفار إلى أن تخلص..». (٣)

لقد لاقى الامام أحمد بن حنبل أشد أنواع الاضطهاد، بالضرب، والحبس،

---

(١) م.س.ن، ص٢٨٠.

(٢) البدري، عبد العزيز. الاسلام بين العلماء والحكام. (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، [د.ت])، ص١٥٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص٢٧٥.

والمنع من التدريس، والاقامة الجبرية، وعدم مساكنته السلطان في بلد واحد..

«فأخذوا يضربونه بالسياط المرة بعد الأخرى، ولم يترك في كل مرة، حتى يغمى عليه، وينخس بالسيف فلا يحس، وتكرر ذلك مع حبسه نحواً من ثمانية وعشرين شهراً، فلما استيأسوا منه، وثارت في نفوسهم بعض نوازع الرحمة، أطلقوا سراحه، وأعادوه إلى بيته، وقد أثخنته الجراح، وأثقله الضرب المبرح المتوالي، والالقاء في غيابات السجن،.. فلما رد الله إليه ثوب العافية، وذهبت وعثاء هذه المحنة عن جسمه، وإن كانت قد تركت آثار وندوباً فيه، وأوجاعاً في بعض أجزائه، مكث يحدث، ويدرس في المسجد، حتى مات المعتصم، فلما تولى الواثق، أعاد المحنة على الامام أحمد، ولكنه لم يتناول السوط إذ رأى أن ذلك زاده منزلة عند الناس، وزاد فكرته ذيوعاً.. بل منعه من الاجتماع بالناس، وقال الواثق له: لاتجمعن إليك أحداً، ولاتساكني في بلد أنا فيه، فأقام الامام متخفياً، لايخرج إلى صلاة، ولا إلى غيرها، حتى مات الواثق».[1]

إلا أن الذين دفعوا حياتهم ثمناً لعقيدتهم في هذه القضية كثر، منهم: (محمد بن نوح).[2] وممن نزل به الامتحان «يوسف بن يحيى البويطي الفقيه المصري، صاحب الامام الشافعي، فقد دعي إلى أن يقول إن القرآن مخلوق فامتنع، فحمل مقيداً مغلولاً، حتى مات في أصفاده محتسباً ذلك عند ربه، ومنهم نعيم بن حمادة، فقد مات في سجن الواثق مقيداً..».[3]

وفي التاريخ الانساني أمثلة متعددة للاضطهاد السياسي، الذي أصاب العلماء والفلاسفة.

فهذا سقراط يموت سجيناً مسموماً، ثمن موقفه الفكري الذي رفعه في وجه

---

[1] أبو زهرة، أحمد بن حنبل، ص٦٥-٦٦.

[2] ابن الجوزي. مناقب الامام أحمد بن حنبل، ص٣١٥.

[3] أبو زهرة. أحمد بن حنبل، ص٦٦.

السفسطائين، الذين أثاروا الشكوك في كل يقين، واعتمدوا الجـدل في الوصـول إلى الحقيقة ونقضيها في نفس الوقت، بحيث مثلوا الالحاد والنفعيـة الاقتصاديـة وكـانت التهمة التي وجهت إلى سقراط، أنه يعلم الشباب الالحاد بالآلهة المتعددة ويدعوهـم إلى إله واحد..

أما أفلاطون، فقد سيق وبيع في سوق النخاسة، وقد مات ابن تيمية سـجيناً في قلعة دمشق.. الخ.

المبحث الرابع

نموذج العلاقة

(١- نموذج السلطان)

لابد من التنويه إلى أن فكرة النموذج فكرة مثالية، ولايمكن تحقيقها في عالم الانسان، إلا في حالة الانسان، الرسول والنبي، ويعود ذلك إلى الوحي الذي يصل الأرض بالسماء. فكل تصرف يقوم به الرسول يخص رسالته فهو موحى به من عند رب العالمين، أما أن نحصل على نموذج للحاكم على مر التاريخ فهذا شيء محال، وضد طبيعة الإنسان، هذا بالنسبة لنموذج السلطان، أما نموذج الفقيه، فهو إنسان أيضاً، يصيب ويخطأ، وإنهم يحملون الحاكم أحياناً كثيرة تبعات أفعال لا علاقة له بها، بينما يحاولون أن يجدوا للفقيه المبرر لخطئه، إن اقتنعوا بأنه يخطأ!.

ومع هذا فقد وجدت بعض التجارب التي اقتربت في صورتها من النموذج، كالخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز.

وقد اعتبر نموذج السلطان في العلاقة عمر بن عبد العزيز لاعتبارات عديدة، فما هي هذه الاعتبارات؟

إن عهد عمر بن عبد العزيز جاء في فترة تاريخية، ابتعدت فيه الدولة عن خطها الأساسي، فصارت دولة الملك والسياسة، وكانت فيما سبق دولة العقيدة، فقد انتقل نظام الحكم في الاسلام من الشورى، وخلافة النبوة إلى الملك بالوراثة،

وبالتغلب، على الرغم من أن الاسلام يهمه نشر العدل وليس صورة الحكم أياً كانت.

فجاء عمر بن عبد العزيز ليعيد الأمور إلى نصابها الحقيقي، ويزيل مظالم بني أمية، بإرجاع الحقوق إلى أصحابها. ومحاولاً إعادة ينابيع الحياة الإسلامية إلى صفائها الخالص، الذي تكدر بتصرفات بعض الحكام من بني أمية.

لقد بدأ في تحديد مواصفات حاشيته، أو ممن يرغب في صحبته قائلاً: «.. إن من أراد أن يصحبنا، فليصحبنا بخمس: يوصل إلينا حاجة من لاتصل إلينا حاجته، ويدلنا من العدل إلى مالا نهتدي إليه، ويكون عوناً لنا على الحق، ويؤدي الأمانة إلينا وإلى الناس، ولايغتب عندنا أحداً. ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا..».[1]

لعل من أهم مواصفات الحاشية، أو من يرغب في صحبته أن ينقل إليه هموم ومشاكل الناس الذين لايستطيعون إيصالها إليه، إنه حاكم يسعى نحو تحقيق صورة الحاكم الموجودة في مخيلة الأمة، كعمر وأبي بكر، لذا يطالب بمواصفات إنسانية رائدة، غير نفعية، ولا وصولية أو انتهازية، تعود بالخير على الأمة. فهو الذي ملأ الأرض عدلاً، على الرغم من قصر مدة خلافته، إنها عودة بالإنسان المسلم إلى الحقبة المباركة، حقبة الرسول وخلفائه الراشدين، وعودة إلى دولة العقيدة.

أما سلوكه الاقتصادي، وقضاؤه على الفساد الذي استشرى كثيراً في عهد بني أمية، ومواليهم من العرب، جاء خير تجربة تبين أنه من الممكن العودة إلى الأصول، ودرساً لمن يرغب من الحكام الذين وصلوا السلطة، وغير راضين عن سلوك سابقيهم، في إعادة أموال الأمة، إلى أصحابها الحقيقين فبدأ بمعالجة الهم الاقتصادي آنذاك، بنفسه، وبأفراد أسرته، ثم انتقل في تطبيق سياسته الاقتصادية على عشيرته

---

[1] ابن عبد الحكم. سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق: أحمد عبيد، ط٥، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٧)، ص٤٠، ٤١.

وقومه، وفق مبادئ الاسلام. لأن الهم الاقتصادي مقترن بالعقيدة، على كافة الجوانب.

«ولما فرغ عمر من تشيع جنازة سليمان وعاد إلى داره قال له مولاه: مالي أراك مغتماً؟ قال: لمثل ماأنا فيه فليغتم، ليس لأحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إلي فيه ولا طالبه مني، ثم صعد المنبر وقال: أيها الناس: إنه لا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد ﷺ، ألا وإني لست بقاض ولكني منفذ، ولست بمبتدع ولكني متبع، ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً. وإن الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم، ألا لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق».[1]

بدأ التغيير، بل الانقلاب في حياة عمر بن عبد العزيز، ساعة تسلمه الخلافة بعد خطاب البيعة مباشرة، فصارت حياته حاجة، أو إلى حد الكفاف، وعوزاً شخصياً، «وهو الذي بلغت غلته أربعين ألف دينار في السنة والذي كان يقول: لو ضافني أهل قرية لوجدت مايعمهم.. وهو الذي وصف بأنه كان من أعظم الأمويين ترفهاً وتملكاً..».[2]

«فبعد البيعة، يتقدم إليه أهل سليمان بن عبد الملك، مشيرين إلى مخلفات سليمان في دار الامارة، قائلين: هذا لك وهذا لنا! فيسألهم عمر بن عبد العزيز: وماهذا وماهذا؟ فيقولون: هذا مما لبس الخليفة من الثياب، ومس من الطيب فهو لولده، ومالم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده، وهو لك. فيجيبهم عمر بالقول الفصل: ماهذا لي ولا لسليمان ولا لكم، ولكن.. يامزاحم ضم هذا كله إلى بيت

---

(١) حسن، حسن ابراهيم. تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط٧. (بيروت: دار احياء التراث، ١٩٦٤)، ص٣٢٧، ٣٢٨.

(٢) خليل، عماد الدين. ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، ط٤، (بيروت: مؤسسة الرسالة، [د.ت])، ص٢٧.

مال المسلمين!».[1] هكذا نجد أن عمر بن عبد العزيز بدأ سياسته التغيرية، والعودة بالدولة إلى الأصول، ثم يتابع برنامجه الثوري على الفساد الاقتصادي في بيته و«ينظر يوماً فيرى لدى زوجته فاطمة بنت عبد الملك، عقداً رائعاً من جوهر ثمين، لم ير مثله، كان أبوها عبد الملك قد أهداها إياه.. فخاطبها عمر معلناً برنامجه التغيري في أهله قبل الآخرين قائلاً: اختاري، إما أن تردي حليك إلى بيت المال وإما أن تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وهو في بيت واحد! فأجابته فاطمة: لا.. بل أختارك عليه وعلى أضعافه.. فيأمر بالعقد فيوضع في بيت مال المسلمين.. وعندما يموت عمر يرحمه الله، ويتولى الخلافة من بعده يزيد بن عبد الملك، يقول لأخته فاطمة: إن شئت رددته إليك. لكن فاطمة ردت قائلة: لا والله! لاأطيب به نفساً في حياته، وأرجع فيه بعد موته».[2]

لكن هل كان هذا التصرف خداعاً للرعية، بأنه زاهد في الحكم، وعادل إلى درجة مصادرة حلي امرأته، أم كان هذا السلوك مرافقاً له في بيته، وفي حكمه، وفي كل حركة وسكنة من حركاته؟

«جاءته عمته لتطالب بأموالها فرأته يتعشى خبزاً وملحاً وزيتاً. فقالت: ياأمير المؤمنين، أتيت بحاجة لي، ثم رأيت أن أبدأ بك قبل حاجتي. قال: وماذا ياعمة؟ قالت: لو اتخذت لك طعاماً ألين من هذا! قال: ليس عندي ياعمة، ولو كان عندي لفعلت، وقبل أن تغادر بيته، يجيبها على طلبها قائلاً: إنهم كانوا يعطونك من مال المسلمين، ليس ذلك المال لي فأعطيكه، ولكني أعطيك مالي إن شئت! فتسأله عمته: وماذا؟ فيجيب: مائتا دينار، فهل لك بها؟ فتقول ومايبلغ مني عطاؤك؟ فيرد لاأملك غيره ياعمة! وتنصرف كما انصرف من قبل رسل بني

---

[1] ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٣٩.

[2] م.س، ص١٥٦.

مروان».[1]

لقد علل عمر بن عبد العزيز لعمته موقفه، وسلوكه الاقتصادي الفردي والرسمي، تجاه أموال المسلمين التي كانت مباحة للسلطة الحاكمة ولحاشيتها. «إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة، ثم اختار له ماعنده وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء، ثم ولي أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم ولي عمر فعمل عملهما ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إلي، وقد يبس النهر الأعظم، فلم يرد أصحابه حتى يعود إلى ماكان عليه».[2]

إن النهر الذي جف ماؤه خلال (٥٨ عاماً)، استطاع عمر بن عبد العزيز أن يعيد إليه ماءه خلال فترة قصيرة جداً، مادام مجرى النهر لايزال موجوداً ألا وهو الاسلام.

فرفع الخليفة شعار «الهداية لا الجباية» في وجه ولاة ظالمين همهم أن تمتلئ خزانة الدولة، بأي طريقة كانت. «فهذا أيوب بن شرحبيل الأصبحي، والي مصر يطلب من عمر أن يعيد فرض الجزية على من أسلم (وقد اتهم بعض الولاة الذين أسلموا أن اسلامهم كان من أجل رفع الجزية عنهم) فجاءه الرد حاسماً (ضع الجزية عمن أسلم، قبح الله رأيك، فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً، ولم يبعثه جابياً. ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه)».[3]

وبعد أن أذاب الجليد، بدأ النهر بالجريان، حتى فاض على من حوله، خيراً وبركة. «فعن أحد حفداء زيد بن الخطاب قال: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصف، فذلك ثلاثون شهراً، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم

---

(1) م.س، ص٦٣، ٦٤.

(2) ابن الأثير. الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٦٤.

(3) ابن سعد. الطبقات، ج٥، ص٣٨٤.

فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيهم، فما يجده، فيرجع بماله. وقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس».[1] هذه سياسته الاقتصادية التي بدأها بنفسه وأهله، ثم بأفراد الرعية، وقد أعطت ثماراً، لامثيل لها في التاريخ الاسلامي.

أما سياسته الادارية فقد تجلت بمراقبته الدائمة لولاته في الأمصار، بعد أن عزل السيئين منهم، وجعل مكانهم ولاة يرضاهم، وتنطبق عليهم الصفات التي وضعها «بحيث يكون للوالي كفاءة وعلماً وإيماناً وقبولاً لدى جماهير المسلمين، ولم يلزم نفسه أبداً بإنتقاء العناصر الادارية من بني أمية، بل على العكس تجاوز رجال هذا الحزب على الرغم مما يمتلكه بعضهم من كفاءات ادارية، رغبة منه في كسر الاحتكار الاداري، وتحطيم البيروقراطية الأموية، والانفتاح على الصفوة من أبناء الأمة عرباً وموالي».[2]

لقد أحيا سنة نبوية في السياسة، وسلوكاً راشدياً في حضه الأمة على مراقبة ولاتها، وأن لا طاعة لهم في معصية، لقد وضع حداً لتصرفات الوالي عندما بعث كتاباً لأمير الحج في ذلك الموسم ليقرأ على أسماع الحجيج «... أنا معول كل مظلوم ألا وأي عامل من عمالي رغب في الحق، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم، ألا وأنه لا دولة بين أغنيائكم، ولا أثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم. ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم..».[3]

لكن ماهو موقف عمر بن عبد العزيز من المعارضة المسلحة التي أقلقت

---

[1] ابن عبد الحكم. سيرة عمر بن عبد العزيز. ص١٢٤-١٢٥.

[2] خليل، عماد الدين. ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز. ص١٥٦.

[3] م.ن، ص٧٢.

الدولة؟. لقد كان شديداً حاسماً، في الموقف التي لاينفع فيه الحوار مع المعارضة، فيعتبر الكي علاجاً عندما لاينفع علاج غيره، فقد بلغه نبأ انهزام قوات عامله في ردعهم للخوارج، فيرسل إلى الخوارج مسلمة بن عبد الملك على رأس جيش من أهل الشام، ويكتب إلى واليه عبد الحميد. «.. قد بلغني مافعله جيشك، جيش السوء، وقد بعثت مسلمة فخل بينه وبينهم، وتنتهي المعركة إلى انتصار مسلمة بن عبد الملك».[1]

إلا أنه لم يغلق باب الحوار في وجه المعارضة المسلحة والمتمثلة في الخوارج بل حاورهم وناقشهم فيما يرى أنه الحق.

«... دخلت جماعة من الخوارج عليه يوماً، وأخذوا يناقشونه في بعض القضايا فأشار إليه بعض أصحابه أن يرعبهم ويتغير عليهم، فرفض ذلك، ولم يزل يرفق في نقاشه مع هؤلاء الخوارج حتى أخذ عليهم كل حجة، ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم مابقي، وخرجوا وهم على الإتفاق، وما أن غادروا المكان حتى التفت عمر إلى أحد أصحابه قائلاً: إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكي فلاتكويه أبداً».[2]

أما وصيته إلى عامله في العراق عندما خرج بسطام اليشكري المعروف بـ (شوذب) عام (١٠٠هـ) ضد الدولة الأموية، فهي: «ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دماً أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك، وانظروا رجلاً صليباً حازماً فوجهه إليهم، ووجه معه جنداً، وأوصه بما أمرتك به».[3]

تبين من هذه الوصية عند مقارنتها بوصية علي كرم الله وجهه في قتال الخوارج، أنها صورة عنها، ومطابقة لما جاء فيها.

---

[1] الطبري. تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٥٥٥.

[2] خليل، عماد الدين. م.س، ص٩٤.

[3] الطبري، م.س، ج٦، ص٥٥٥.

ثم «منع شتم علي بن أبي طالب وآل بيته على المنابر، ثـم وزع الخمـس علـي بني هاشم، ورد منطقة (فدك) إلى ولد فاطمة رضي الله عنها».[1]

إلا أن (شذوب) لايقاتل، بل يبعث مندوبان إلى عمر بن عبد العزيز، يحاورانـه فيما يرونه صحيحاً.

«يسأل المندوبان عمر عن يزيد لم تقره خليفة بعدك؟ وهذا يخالف مبـادئهم في اختيار الحاكم فكان رد الخليفة: صيره غيري، فقالوا: أفرأيت لو وليت مالاً لغـيرك ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أتراك أديت الأمانة إلى من ائتمنك؟ فلا يجيب عمـر بن عبد العزيز عـن هـذا السؤال الهـام، ويطلـب مـن المفـاوضين أن يمهلانـه ثلاثـة أيام».[2]

مضى أحد المفاوضين إلى شوذب كي يخبره بما جرى في مناقشة عمر ابـن عبـد العزيز، التي دارت في جو من الحرية، وطلباً للحقيقة، والانصاف، حتى ولو كانت عند الخوارج، لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها.

«تذكـر أغلـب الروايـات علـى الظـن أن بنـي مـروان خـافوا أن يخـرج عمـر ماعندهم، ومافي أيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيد، فدسوا إليـه مـن سقاه سـماً، فلم يلبث أن مات في نفس اليوم الذي تقرر أن يعطي فيه جواباً للمتفاوضين».[3]

إن الخوارج خسروا بموت الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، محـاوراً وحاكمـاً عادلاً كان غاية طموحه أن ترجع هذه الحركات الخارجية إلى الجماعة. ولـم يستغل خروجهم كمبرر لإبادة من يعارضه في الرأي. وقد نبه الحكام الذين جـاؤوا بعـده، أن علاج الخوارج ليس القتال، بل الحوار، والصدق والمحبة، والاخلاص مـن أجـل عودتهم إلى الجماعة.

---

(1) ابن سعد، الطبقات. ج٥، صفحات: ٢٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، انظر الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٥٤.

(2) الطبري. م.س، ج٦، ص٥٥٦.

(3) م.س، ج٦، ص٥٥٦.

لعل نهاية عمر بن عبد العزيز لم تكن مفاجئة لأحد من المسلمين، لأن الاصلاحات والتغيرات التي أدخلها على الدولة الأموية - التي اتخذت الملك السياسي هدفاً لها - وأعادها إلى حظيرة الاسلام الحنيف، جعلت بني أمية أعداء له، لأنه حرمهم من مكاسبهم غير الشرعية التي كانوا يتمتعون بها، عن بقية المسلمين.

لهذا كله يعتبر عمر بن عبد العزيز نموذجاً للحاكم العادل، لأنه جاء في ظروف تختلف عن ظروف الخلفاء الراشدين، وعلى الرغم من ذلك فقد استطاع أن يعيد الدولة التي انحرفت عن مقاصد الدين، في زمن قياسي، خلال ثلاثين شهراً فقط، وكان أنموذجاً للحاكم في محاورته للمعارضة المسلحة التي تهدد كيان الدولة وأنموذجاً في سياسته الادارية، وسلوكه الاقتصادي الشخصي والرسمي للدولة...

المبحث الخامس

نموذج العلاقة

(٢- نموذج الفقيه)

مادام ليس هناك من نموذج بشري، سوى الأنبياء والرسل، فلماذا تم اختيار الامام مالك كنموذج للفقيه؟

في الحقيقة هناك عدة جوانب تستدعي هذا الاختيار:

أولها: أن الامام مالكاً مد الجسور بينه وبين الحكام من أجل صالح الأمة.

ثانيها: جرأته وأمانته العلمية.

ثالثها: أخذه الأموال والهدايا من الحكام على أنها حق له.

رابعها: رؤية شخصية ترى مكانته في الأمة، كفقيه توازي مكانة السلطان.

١- علاقته بالحكام:

لقد أكثر الامام مالك من الدخول على الحكام، من ولاة وسلاطين، وخالطهم، ناصحاً حيناً، ومنذراً وناهياً حيناً آخر، على الرغم من وجود فقهاء، يرون أن النظر في وجه الحاكم معصية، وكل من يدخل عليهم، يشك في دينه! فما هي وجهة نظر الامام مالك في علاقته بالحكام؟

لقد تبين له من خلال التجارب التي مرت به، في العهدين الأموي والعباسي، أن مقاطعة الحاكم والخصام معه ليس في صالح الأمة، فرأى أن يمد الجسور، بينه

وبين الحكام، وبذلك يستطيع أن يوصل هموم الشعب إلى الحاكم مباشرة دون المرور بحاشيته.

كان الامام مالك يبين أهمية تواصله مع الحكام قائلاً: «لولا أني آتيهم مارأيت للنبي ﷺ في هذه المدينة سنة معمولاً لها».[1]

وكان أشد مايخشاه الامام مالك، هو أن يحتاج الحاكم إلى استشارة في قضية ما، فلا يجد أمامه إلا المنافقين، أو غير أهل العلم، فيفتون بهوى أو بجهل، لذا يلح الامام مالك على كل صاحب علم أن يكون قريباً من السلطان لأنه بوجود العالم الطيب، يبعد الخبيث الطامع فيما عند السلطان من مرغبات.

إن وجود العالم التقي إلى جانب السلطان يحقق مصلحة الأمة، أولاً وأخيراً. «.. حق على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه، أن يدخل إلى ذي سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر، حتى يتبين دخول العالم من غيره، فإذا كان، فهو الفضل الذي لابعده فضل».[2]

وقد سأله بعض تلاميذه «الناس يستكثرون أنك تأتي الأمراء، فقال: إن ذلك بالحمل من نفسي. وذلك أنه ربما استشير من لاينبغي».[3]

لقد كان الامام مالك أكثر واقعية من غيره من الفقهاء، كأبي حنيفة، والثوري وابن حنبل.. إن الفارق بين موقف الامام مالك الذي خالط فيه الحكام، وبين موقف الذين يرون ضرورة قطع الصلة بهم - وحتى أنهم فضلوا فقدان البصر، على النظر إلى وجوه الحكام - واسع جداً.

فموقف الامام مالك يضع المصلحة العامة فوق مصلحته الفردية في الورع، والسلامة، بينما الآخرون، يرون أن خلاصهم الفردي غاية طموحهم، وهو

[1] أبو زهرة. مالك، ص٦٥.

[2] م.س، ص.ن.

[3] م.ن، ص،ن.

كالفرق بين رسالة النبي، ورسالة الولي. بالرغم من الاتهامات التي وجهت إليه ظل معتبراً مخالطة السلطان هي الطريق الصحيح للحد من أي استبداد يمكن أن يقع بالأمة، ولأن استشارة غير العالم هو ذهاب العلم الذي حذر منه رسول الله ﷺ.

٢- قبوله الهدايا والأموال:

لقد أخذ الامام مالك الأموال والهدايا من الحكام، لعدم وجود مصدر رزق خاص به، ولتفرغه للعلم والتعليم خاصة أن أغلب طلبة العلم كانوا من الفقراء، فكان الامام يصرف عليهم، ومن بينهم كان الامام الشافعي. «فقد سئل عن الأخذ من السلاطين. فقال: أما الخلفاء فلا شك - يعني أنه لابأس به - وأما من دونهم فإن فيه شيئاً».[١]

يرى الامام مالك أن المال الذي يأخذه من الحكام هو من حقه الطبيعي لأنه يقوم بعمل لايقل أهمية عن الجهاد في الثغور في سبيل نشر الدين.

إن إمام دار الهجرة، يفضل أخذ المال من الحكام، أفضل من مد يده إلى مادونهم، إننا نلاحظ أنه أخذ المال من الحكام لضرورة الحاجة، والتزامات الانفاق على طلبة العلم، وعلى الرغم من ذلك فهو يرى فيها شيئاً.

لقد سئل كثيراً عن هدايا السلطان «فكان يقول لسائله: لاتأخذها. فيقول له أنت تقبلها. فيقول: أتريد أن تبوء بإثمي وإثمك».[٢]

إن أخذه من مال الحكام، لايعني مطلقاً، أنه سلوك صحيح، وهو يقر بهذا، لكنه لايستطيع أن يعيش حياة الزهد التي عاشها الامام أحمد بن حنبل، عندما رفض مال السلطان، ولم تكن عنده أموال أبي حنيفة فيستغني بها عن هدايا الحكام.

---

[١] أبو زهرة. مالك. ص٤٠.

[٢] م.ن، ص.ن.

٣- أمانته العلمية ومكانته الاجتماعية:

بالرغم من دخوله على الحكام وأخذه الأموال والهدايا منهم، فإنه كان أميناً على رواية حديث رسول الله ﷺ، فلم يكتم حديثاً يعرفه، لهوى في نفسه، أو تلبية من حاكم بالسكوت عن رواية حديث معين. لقد أصيب بمحنة ضرب فيها، وأهين - وهو عالم ومحدث مدينة الرسول - من أجل نشره وروايته لحديث رسول الله ﷺ: «ليس على مستكره طلاق».

إن الأمانة العلمية المنوطة بالفقيه جعلت الامام مالكاً يتحمل كل أنواع الاضطهاد والاهانة، في سبيل نشر العلم، وعدم كتمانه، حتى ولو طلب منه الحاكم ذلك، وهو الذي أغدق عليه كل أشكال الهدايا والأموال، فلم يستطع اسكاته، أو شراءه.

«فالعلماء من الفقهاء يمثلون رأي الشعب ورغبته، راضين أو كارهين منتبهين في وعي أو غير منتبهين، لأنهم لابد متحدثون عن الحقوق والواجبات، لكل من الحاكمين والمحكومين، وهم لابد مفتون في هذا عند كل مناسبة.. ولذلك يعتبر تاريخ هذه المحن هو صفحات تاريخ السلطة الشعبية، ضد الحاكم المستبد المتفرد، وهي بذلك صفحات في تاريخ الحرية الفكرية، لأن المسألة تبدأ وتنتهي عند قول يراد اخفاءه والاجبار على كتمانه».[1]

إن المكانة التي وصلها الامام مالك في المجتمع الاسلامي جعلت أبا جعفر المنصور، يطلب إليه مراقبة ولاته على الحجاز قائلاً له: «... إن رابك ريب من عامل المدينة، أو عامل مكة، أو أحد عمال الحجاز في ذاتك، أو في ذات غيرك، أو سوء أو شر بالرعية، فاكتب إلي بذلك. أنزل بهم مايستحقونهم. وهو يعد - مالكاً - شيخاً للخلفاء الذين جاؤوا من بعد المنصور، ولذلك كان لنصائحه في

---

[1] الخولي، أمين. مالك تجارب حياة. ص٣٠١-٣٠٢.

نفوسهم موضع أثر».[1]

فهو صاحب المكانة الموازية للحاكم حتى في المجلس. «يروى أنه قدم المهدي المدينة. فجاءه الناس مسلمين، فلما أخذوا مجالسهم، أستأذن مالك، فقال الناس: اليوم يجلس مالك آخر الناس، فلما دنا ونظر إلى ازدحام الناس قال: ياأمير المؤمنين أين يجلس شيخك مالك؟ فقال: عندي ياأبا عبد الله، فتخطى الناس حتى وصل إليه، فرفع المهدي ركبته اليمنى، وأجلسه بجواره».[2]

وبعد يبقى الامام مالك إنساناً يصيب ويخطئ ونظرتنا إليه كنموذج للفقيه، ليست نظرة منقبية، تنسينا انسانيته، بل لما مد من الجسور مع الحكام، وكان مخلصاً أميناً لقضايا الأمة، وعدم كتمانه العلم على الرغم من قبوله الهدايا والأموال، ثم الأهم من ذلك أنه لم يدع إلى الخروج على السلطة، ولم يبرر الخروج، بل رأى أن الاصلاح الاجتماعي، للمحكوم والحاكم أفضل عاقبة، من الثورة والخروج على الحاكم مهما كان شكله.

---

[1] أبو زهرة، محمد. الامام مالك. ص٦٥.

[2] م.س، ص٦٦.

قراءة شاملة

-١-

إن دعوة الأنبياء والرسل لأقوامهم التي أوردها النص القرآني تبين لنا الأسلوب الواجب إتباعه في الدعوة والعلاقة مع السلطة القائمة، خاصة إذا كانت جائرة وظالمة.

ولعل مميزات هذا الأسلوب النبوي، تمثلت في البلاغ المبين، وبلسان القوم، حتى لاتكون للمبلغين حجة بأنهم لم يفهموا، ولم يستوعبوا رسالة الرسول لغموضها وعدم وضوحها، وحتى هذه الدعوة التي اعتمدت على القول فقط، كانت لها معارضة شديدة من الكافرين، فمن سد الآذان حتى لايسمعوا كلام الرسول، إلى التهجير، أو الرمي في النار، والاتهام بالسحر حيناً، وبالجنون حيناً آخر، والسخرية والقتل أحياناً.

وبالرغم من ذلك كله نجد الأنبياء والرسل قد صبروا صبراً عظيماً، على أذى أقوامهم ولم يلجؤوا إلى العنف، أو حتى طلب الإبادة للكافرين من قبل الله عز وجل، إلا في حالة استنفاذ الفرص، كحال قوم نوح، وقوم لوط، وقوم فرعون، وللإبادة هذه وظيفة تطهيرية من أجل صالح الجماعة البشرية، ومن سمات دعوة الأنبياء والرسل الحلم، وهو خلق يجب أن يتحلى به كل إنسان، ويلزم الدعاة أكثر من غيرهم لأن غاية الدعوات، هو إنقاذ الآخرين، وليس الكسب المادي، أو المعنوي، بل كان شعار الأنبياء على مر التاريخ إنما أجري على الله. فلا بد لمن يسعى لإنقاذ الآخرين من أن يتحمل كافة أنواع الصعوبات، لأن طريقه محفوفة

بالمخاطر التي صنعها المستكبرين منهم، وهم الذين هددت بتلك الدعوات مصالحهم المادية والمعنوية فمنهم من زالت سطوته، وهيبته العقائدية، ومنهم من زلزلت مكانت الاجتماعية وهؤلاء المتضررون موجودون في كل زمان ومكان، مادامت هناك دعوات تغيرية نحو الخير والعدل والمساواة.

إن أهم ميزة لدعوة الأنبياء والرسل بعد البلاغ المبين، هي الدعوة باللين والرفق بالآخرين، مهما كان استبدادهم وظلمهم، وهذا ماجعل سجل الرسل والأنبياء خالياً من أي حادثة عنف، أو اتهام بعنف من قبل الآخرين، إلا موسى عليه السلام، وكانت حادثة القتل غير مقصودة، ورغم ذلك فقد أثارها فرعون في وجه موسى عليه السلام، ومع أن فرعون نموذج الاستكبار والظلم في التاريخ البشري، فإن الله تعالى أمر موسى وهارون عليهما السلام بدعوته بالقول اللين والرفق.

-٢-

ولقد أصاب رسول الله ﷺ من الأذى والسخرية الشيء الكثير، فالاتهام بالجنون حيناً وبالسحر حيناً آخر، وبرمي الشوك في طريقه مرة، وضربه بالحجارة في الطائف مرة أخرى، إن مالاقاه رسول الله صورة لما لاقاه الأنبياء من قبله، فذو قربى جاف وجلف، وعم مكذب، وقبيلة لم يؤمن منها إلا القلة، مع اصرارها على اسكات دعوة الحق، مهما كان الثمن. وفي مقابل ذلك نجد سلوك رسول الله عليه السلام غاية في العفو والصفح والصبر والحلم، فمايزال دمه الشريف يسيل على وجهه وهو في الطائف، حتى يبعث له الله ملك الجبال ليأمره إن شاء بإنزال العقوبة بقومه، فكان رده عليه السلام: أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولايشرك به شيئاً.

إن هذا الموقف مثال وقدوة لكل من يسعى إلى دعوة الآخرين من أجل

انقاذهم، لأن رسول الله ﷺ لم يبعث لإنهاء الكفر وإكراه الناس على الدين الذي جاء به، بل بعث لينهي الظلم، وينشر العدل والحرية لكل الناس أياً كان معتقدهم الديني فلا يمارس عليهم الظلم، ولا يمارسونه على غيرهم.

أما مهمة الرسول ﷺ في المرحلة المكية لم تكن إلا البلاغ المبين، بشتى الوسائل الممكنة، والمتاحة، وبدون أدنى مقاومة للكافرين، حتى أنه لم يسمح للصحابة في الدفاع عن أنفسهم، وهم الذين أصابهم في سبيل عقيدتهم ألوان شتى من العذاب، والاضطهاد، فمن الحرق والتعذيب في رمضاء مكة، إلى التهجير عن الوطن، أو التعذيب حتى الموت، كل هذا من أجل أن يتراجع المسلمون عن عقيدتهم، وأغلب المسلمين الأوائل كانوا من العبيد والجواري والضعفاء، الذين لا سند قبلي لهم، لقد كان الصحابة في مرحلة أداء الواجبات، دون طلب الحقوق.

لكن العذاب والأذى اشتد بأصحاب رسول الله، مما جعل أحدهم يطلب من الرسول أن يدعو الله لهم بالخلاص، من أتون هذا العذاب الأليم، إلا أن رسول الله غضب من هذا الطلب وقال لهم: «.. لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحم أو عصب مايصرف ذلك عن دينه». لأن العقيدة العظيمة التي يسعى حاملوها لتخليص البشرية من العبودية والظلم والاستعباد، لابد لمعتنقيها من أن يقدموا تضحيات جساماً تتناسب مع عظمة هذه الرسالة، وبذلك يفرز الخبيث من الطيب، والمؤمن من المنافق، ويتبين مدى التزام المسلمين بهذه العقيدة مهما كانت النتائج. متحلين بالصبر والحلم وكظم الغيظ، لأنهم هم القادة الحقيقيون للمجتمع المنشود الذين يسعون لإقامته، وهم الذين سيصلون إلى هذه القيادة دون أي إدانة حتى من أعدائهم، ولم يكن لهم ذنب سوى أن يقولوا ربنا الله، أن الذين انصهروا في بوتقة العهد المكي من الصحابة، هم أكثر قدرة من غيرهم على قيادة المجتمع المسلم الجديد، لأن نار المحنة صقلت معادنهم وجعلتها أكثر مضاءً وأصالة.

ويبقى فتح مكة المحك الأساسي لقيم وأخلاق المسلمين في استيعابهم للآخر المخالف للعقيدة، ومن كان بيده سوط العذاب الذي أوقع بالمسلمين أبشع صور التعذيب قبل سنوات خلت، وهؤلاء المهجرون من مكة أصبحت لهم الآن القوة والسيادة. إن المستضعفين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة استطاعوا أن يبنوا دولة ذات سيادة، ومنعة وعزة، فتغيرت المعادلة انقلب الضعف قوة، وصار للأفراد المستضعفين دولة، وصار المستكبرون من كفار قريش، أفراداً مهزومين ولو انتقم المسلمون من كفار قريش لكان العدل، لكن رسول الله ﷺ بلغه أن سعد بن عبادة، قال لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة. فلم يرضى رسول الله ﷺ هذا الرأي من سعد [وسعد من الأنصار ولم يلق أي نوع من العذاب] وقال ﷺ: «بل اليوم يوم المرحمة..» ومن الملاحظ أن الشاهر سيفه رجل مسلم من أهالي المدينة لم يلق أي عذاب أو أذى في سبيل عقيدته، ومن هنا تبين لنا عظمة الدرس النبوي الذي ربى عليه الصحابة في المرحلة المكية من خلال تعويدهم الصبر وكظم الغيظ والحلم، لأن من يملك القوة ولايملك هذه الصفات القيادية تصبح القوة الموجودة في يده خطراً عليه وعلى الآخرين.

لقد استطاع رسول الله ﷺ إنهاء دورة العنف في المجتمع الاسلامي الأول عندما خاطب كفار مكة.. اذهبوا فأنتم الطلقاء..، وهذا الموقف في إنهاء العنف يماثل قول عيسى ﷺ لأحد حواريه عندما استل سيفه من غمده فأوقفه المسيح ﷺ قائلاً له: (إن جميع من يمتشقون السيف، بالسيف يفنون).

وبعد هذه اجابات للأسئلة التي طرحت في بداية الفصلين الأول والثاني تبين نموذج العلاقة في القرآن والسيرة النبوية بين الحاكم والمحكوم، أو بين صاحب الفكر، وصاحب السلطة.

-٣-

لكن كيف تكون علاقة المسلم بالحاكم الظالم من خلال الأحاديث النبوية؟

لم يترك رسول الله عليه الصلاة والسلام شيئاً يهم المسلمين إلا نبههم إليه مشجعاً إن كان خيراً، ومنذراً ومحذراً إن كان الأمر شراً وسوء عاقبة.

فقد حدد رسول الله واجبات وحقوق كل من الحاكم والمحكوم، وحصر طاعة المحكوم للحاكم في المعروف فقط، وعصيانه فيما يأمر من معصية، وبهذا يتحول المسلم من عصا بيد السلطان، إلى إنسان صاحب فكر يقبل ويرفض تبعاً لمبادئ هذا الفكر، ويحذر رسول الله المسلمين من الخروج على الحاكم الظالم، مادام مقيماً للصلاة، ولم يظهر كفراً بواحاً. وذلك ضماناً لاستقرار المجتمع وتجنيبه أخطار الفتن. لكن هذا الموقف لايعني استسلاماً سلبياً للحاكم، بل على المسلمين أن يناضلوا ضده بأسلوب سلمي قاعدته قول الحق أينما كانوا لايخافون في الله لومة لائم، ومن يموت نتيجة قول الحق فهو شهيد، والشهادة غاية المسلم في هذه الحياة، أما من يعارض الحاكم بالسيف ويموت نتيجة صراع مسلح وتنظيمات سرية فالقاتل والمقتول في النار، وفي حال اشتداد ظلم الحاكم وجوره، فعلى المسلم أن يؤدي الحقوق التي عليه، بلا معصية لله، ويسأل الله حقه. وبذلك في مرحلة أضعف الإيمان، وهو الإنكار في القلب. وفي حال ابتليت البلاد بفتنة داخلية فما هو موقف المسلم؟ يحذره رسول الله من المشاركة فيها، ويرغبه بالصبر وليكن كخير ابنى آدم المقتول، لا القاتل وفق هذه المعايير تشكل المجتمع الاسلامي في العهد النبوي.

لكن من هو الذي يقول كلمة الحق أمام السلطان الجائر؟ وماهي صفاته؟ لابد لمن يقوم بهذه المهمة الجليلة والخطيرة من صفات معينة، قديماً كانت من اختصاص الفقهاء والعلماء، أما حديثاً فيجب أن يكون لمجلس محايد، يراقب تصرفات

السلطات والمسؤولين، وله الحق في إبطال التصرف غير القانوني.

لقد حدد ابن تيمية ثلاث صفات للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر: العلم والرفق والصبر. وتعود أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لما لكلمة الحق من فاعلية، وهي الضمان الوحيد لعدم تراكم الخطأ في الجماعة، ولانتشار العدل والمساواة بين الجميع. لأن الظالم لو أراد أن يظلم فسيضع في حسبانه أن هناك أفراداً لايسكتون على خطأ أو منكر، ولو كلفهم هذا الموقف حياتهم، وهؤلاء الأفراد ظاهرة اجتماعية وليسوا أفراداً متفرقين. بهذا يبدأ الصراع بين الظلم وأهله من جهة، وبين الحق وأهله من جهة ثانية. وهذه هي المعارضة التي يتبناها الاسلام، وهي ليست سلبية انسحابية كما تبدو على السطح إنما هي غاية في الايجابية لأن المهم في كل عمل إنساني هو عاقبة هذا العمل.

ومن دروس التاريخ القديم والمعاصر نجد أن المعارضة المسلحة لأي حاكم ليست في صالح الجماعة، لأن موازين القوى غير متكافئة، بين الطرفين، وسيزداد الظالم ظلماً في حال استمراره في الحكم، أو تتفتت البلاد ويموت الأفراد بين الجوع والحرب الأهلية، والشواهد كثيرة في واقعنا المعاش.

-٤-

أما في علاقة الفقهاء بالسلطان (الجانب النظري) حاولت أن أجد إجابة لكل سؤال مما يأتي.

ماهي أهمية وجود الحاكم عند المسلمين؟

وهل وجوده واجب عقلاً أم نقلاً أم كليهما؟

وهل يمكن للأمة أن تستغني عن وجود الحاكم؟

لقد أمر رسول الله ﷺ النفر الثلاثة بتأمير أحدهم، وفي هذا دلالة واضحة

لأهمية الامارة في الجماعة الاسلامية، وهذا الأمر الجليل هو الـذي أثير حولـه أول خلاف بين الأمة، ورسول الله لم يدفن بعـد، فاختـاروا خليفـة، لأن الأمـة تكـون آثمة في حال عدم اختيار خليفة يقيم أمر الدين والدنيا.

أما في وجوب الخلافة، انقسم المسلمون إلى ثلاثـة أقسـام، فـأهل السـنة يـرون الخلافة واجبة نقلاً وعقلاً وهي مصلحة اجتماعية بـالرغم مـن ضرورتهـا. والشـيعة يرون وجوب الخلافة نقلاً لأنها أصل مـن أصـول الديـن، ولايجـوز للرسـل عليهـم السلام إغفاله واهماله ويختلف الخوارج في قضية وجوب الخلافـة فالمحكمـة الأولى ترى أن لايكون في العالم إمام أصلاً، أما النجدات فقد أجمعوا على أنـه لا حاجـة للناس إلى إمام قط، إنما عليهـم أن يتنـاصفوا فيمـا بينهـم، ويجـوز إقامـة الخليفـة إذا كانت له حاجة ولايتم التناصف إلا به. أمـا بقيـة الخـوارج فتقـول بوجوبهـا عقـلاً ونقلاً. وانقسم المعتزلة إلى قسمين حيال وجوب الخلافة. قسم قائل بوجوبها شرعاً وهم البصريون، ويختلف البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريـن عـن القسـم الأول بالقول بوجوبها عقلاً.

فمـا دام منصـب الخلافة واجـب فمـاهي صفـات ممـن يرشـح أو يشـغل هـذا المنصب؟ لقد وضع الفقهاء شـروطاً وصفـات يجـب أن تتوفـر في الحـاكم أو فيمـن يرشح لهذا المنصب، فتباينت الشروط مـن فقيـه لآخـر، ومـن زمـن لآخـر، وتتـابع التخلـي عـن الشـروط الموضوعـة حتـى أجـازوا حكـم المتغلـب، وحكـم العبيـد؟! وأشادوا بحكم المرأة في تجربة أروى بنت أحمد اليمانية، علماً أن من شروط الامامـة أن يكون ذكراً؟!

إن الأطر السياسـية النظريـة لممارسـة السياسـة في الاسـلام جـاءت في المرحلـة التالية لوجود السلطة السياسية وخاصة بعد انقـلاب دولـة العقيـدة إلى دولـة الملـك السياسـي فالشـروط النظريـة لـم تـأت بالسـلطة السياسية، إنمـا السـلطة السياسـية وضعت الشروط النظرية التي تنطبق عليه لتبدو شرعية. فكـانت النظريـة السياسـية

التي أرسى قواعدها الفقهاء والمتكلمون تابعة للسلطة السياسية مبررة ومهادنة لما تراه من انحراف، فكانت نظرية لتثبيت سياسة الأمر الواقع، وأنه ليس بالإمكان أفضل مما كان!

أما شروط وصفات الحاكم فكانت متباينة بين الفرق الاسلامية، فعند أهل السنة (العدل - العلم - الكفاية وسلامة الحواس والأعضاء، والذكورة، والحرية، والنسب) وقد كان خلاف في قضية النسب فمن قائل بضرورة أن يكون قرشياً، ومن قائل أن الاسلام جاء لينهي هذه العصبية وأن النسب لا عبرة له في قضية الحكم، وقد تنازل أهل السنة كثيراً في شروط الحاكم حتى لم يبق شرط ينطبق على الحاكم مما قد وضعوه سابقاً، لذلك قالوا بإمامة المتغلب، والسمع والطاعة له في المعروف..

لكن الخوارج اختلفوا عن الفرق الاسلامية بشروطهم التي وضعوها لمن يتقلد منصب الخلافة، فكانوا أصحاب نظرية سياسية ديمقراطية متقدمة. فقالوا بأن الخلافة حق لكل مسلم مادام كفوءاً لها سواء كان قرشياً أو غير قرشي، عربياً، أم عجمياً. ومن شروط الخليفة الاسلام والعدل بدل الحرية والعروبة. ويفضل أن يكون الحاكم ممن لا عصبة له من أجل سهولة عزله، أو تغييره، وإن أبى يسهل قتله!.

أما الشيعة الزيدية فتفضل أن يكون الامام عدلاً فاطمياً، وأن يخرج داعياً لنفسه إلا أن الامامية حصروا الامامة في ولد علي من فاطمة رضي الله عنهما. ومادام يأتي بالوصاية فلا شروط مسبقة لديهم، لكنه سيكون أعدل وأعلم الموجودين، والغريب أن هذه الدعوة لاتختلف كثير عن الملك بالوراثة، فلا فرق مادام الحكم محصوراً في بيت معين وسلالة معينة.

كيف نخرج من مأزق عدم توفر الصفات التي وصفها الفقهاء للحاكم؟ مادامت الشروط التي وضعت مثالية إذن لايمكن وجودها في شخص واحد لهذا

قال الفقهاء بإمامة المفضول مع وجود الفاضل حلاً لهذا المأزق السياسي النظري في المجال التطبيقي. فقد اتفق جميع الأئمة على جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، عدا الامامية الجعفرية والخوارج، الذين يرون ضرورة أن يكون الخليفة أفضل الموجودين، ويجيز الخوارج أن يكون هناك خليفتان في حال عدم توفر الشروط في شخص واحد.

لكن ماهو موقف الفقهاء تجاه الحاكم المتغلب؟ في هذه الحالة أمامنا ثلاثة احتمالات: الأول: وجوب الطاعة في غير معصية تبعاً للأثر المروي عن النبي ﷺ. الثاني: المعارضة الكلامية من قبل الفقهاء والعلماء في حدود كلمة الحق وعدم إثارة الفتن. الثالث: المواجهة المسلحة والخروج على السلطة القائمة.

لقد اتفق أغلب فقهاء السنة على وجوب طاعة الحاكم المتغلب في غير معصية، ومن هؤلاء الامام الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل، أما الشيعة الجعفرية، فكان موقفهم تقية عدا الامام زيد الذي كان موقفه واضحاً وتطبيقياً لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متأثراً بفكر المعتزلة لكن الامام أبو حنيفة كان له موقف متذبذب بين القول بشرعية الخروج وعدم تطبيقه لهذا الرأي بالخروج معهم شخصياً، فكان موقفه خطيراً، لأن فتوى واحدة للفقيه في قضية سياسية ساخنة كافية لتثوير جماهير المسلمين خاصة العامة منهم بينما نجد أن موقف الامام أحمد بن حنبل كان مسؤولاً وواعياً لأهمية موقفه ولكل كلمة تخرج من فمه في قضية (خلق القرآن) على الرغم من كل أنواع الاضطهاد والعذاب والسجن التي مورست عليه.

إلا أن الخوارج يرون أن الحاكم المتغلب غير شرعي يجب خلعه أو قتله وهم الذين رفعوا شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأعلى مراتبه ألا وهو التغيير باليد، وذلك كي يكونوا مؤمنين حقاً، لأن الإيمان ماوقر في الصدر وصدقه العمل. إن الخوارج كحركة لم يعوزهم الاخلاص يوماً، بل كان ينقصهم الصواب في عملهم.

إن قضية تكفير الآخر الذي لايقول برأيهم هي ميزة أساسية لهم، فعندهم وجوب تطابق العمل مع القول، وقد وصفهم الامام علي بن أبي طالب عندما سأله أحدهم: أمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لايذكرون الله إلا قليلاً، قيل: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فروا، قيل له: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا. أما تعامله معهم فقد حدد بنقاط ثلاث: «لكم علينا ثلاث لانمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولانبدؤكم بقتال، ولانمنعكم الفيء مادامت أيديكم معنا».

يلاحظ من كلام الامام علي رضوان الله عليه، أن المعارضة مباحة مالم تنتقل إلى مقاومة مسلحة، وإن وصلت إلى المعارضة المسلحة، فلهم حقوق اجتماعية ودينية، منها مشاركة المسلمين عبادة الله في المساجد، وإعطاؤهم حظهم في الفيء، ولايبدؤون بقتال.

لعل لغة الحوار مع المعارضة هي السلاح الوحيد والأكيد في ارجاعهم إلى الجماعة. وقد كان عهد عمر بن عبد العزيز مميزاً بالعدل والحوار مع الخوارج الذين هدأت ثورتهم فترة خلافته.

وفي غياب لغة الحوار بين الحكام والمعارضين لهم، سيكون الجو الاجتماعي مهيأ للفتن، وللتكفير المتبادل بين الطرفين، فالحكام يوردون نصوصاً تبين أن معارضيهم خوارج يجب قتالهم، أو ابادتهم تحت ذريعة أمن واستقرار المجتمع، وإذ يقومون بتصفية هؤلاء فقد استندوا إلى شرعية قانونية واجتماعية ودينية، لأن هذه المعارضة المسلحة تهدد كيان المجتمع والحاكم على السواء ومن حقه الدفاع عن منصبه وعن الجماعة التي هو مسؤول عنها، وتأمين جو الأمن والاستقرار أحد وظائفه الأساسية في المجتمع.

بينما نجد المعارضة تكفر الحاكم وترى أن الخلاص منه رسالة دينية، ووطنية، فتورد الآيات التي تصف من لم يحكم بما أنزل الله بالكافرين، وبالظالمين، وبالفاسقين. علماً أن هناك اتفاق على هذه الآيات فسرت بوجه مغاير لسبب

نزولها واعتبرتها بعض الحركات الاسلامية التي اتخذت العنف طريقاً للتغير سنداً شرعياً في قتال السلطة القائمة. «.. أن هذه الآيات الثلاث نزلت بإتفاق المفسرين وأئمة الحديث في حق يهود تحاكموا إلى رسول الله ﷺ في شأن إقامة حد الزنى على امرأة زنت أو في حق يهود جلدوا.. حيث كان يجب الرجم، فاستحلف أحدهم: أهذا هو حكم الله فيما تعملون؟ فأقر بأن اليهود غيروا وبدلوا.. روى ذلك، مسلم في صحيحه وأحمد وأبو داود وابن حرير كلهم عن البراء بن عازب».(1)

وهنا يبدو دور الفقهاء الحقيقي في شرح وتفسير الآيات التي تكون مثار خلاف والوصول إلى حقيقة علمية محايدة، يقنع بها الجميع، بحيث لاتبقى هذه الآيات مصدراً لفهم خاطئ، وتفسير يدمر الفرد، ويقلق أمن واستقرار الجماعة.

-٥-

لكن كيف نخرج من هذه الأزمة؟ هل نلغي المعارضة نهائياً وهذا ضد طبيعة الأشياء؟ أم يبقى الحاكم إلهاً لا يحاسب ولا يناقش فيما يفعل ويأمر؟

أم يستمر الصراع بينه وبين معارضيه بحيث تفتت وحدة الجماعة وتثار الفتن؟ هنا تبدو وظيفة الفقيه وعلاقته بالسلطان، ليكون حكماً ومنظراً سياسياً، لحدود كل من الفئتين.

إن علاقة الفقيه بالسلطان علاقة قديمة قدم التاريخ الانساني نفسه، على الرغم من التسميات المختلفة للفقيه. فعندما كان السلطان مؤلهاً نفسه كان في حاجة إلى من يجعله شرعياً في نظر رعيته، وهذه مهمة الكاهن الذي شاركه السلطة آنذاك، ثم جاءت الأديان السماوية لتعيد العلاقة إلى إطارها الصحيح وهي عبادة الله

---

(1) البوطي، محمد سعيد رمضان. هكذا فلندع إلى الاسلام، أبحاث في القمة (٩)، (دمشق: مكتبة الفارابي، [د.ت])، ص٨١.

الواحد.

فكلما كانت العلاقة بين الفقه والسلطان علاقة تكامل وتزاوج لايعرف العقم، وتعاون متبادل كانت النتيجة في صالح الأمة، فالنور لايتولد إلا من التقاء القطبين السالب والموجب فيمر التيار في الدارة الكهربائية، ويشع النور.

أما إذا كانت العلاقة صراعاً حيناً ونفاقاً تارة، إقصاءً تارة أخرى، فإن البلاد مهددة باستبداد شديد، وبإمكانية ظهور فتن وتنظيمات سرية لأنها لاتعيش إلا في جو الاستبداد والقهر في سراديب الظلام. وإن طرفي العلاقة (الفقيه والسلطان) هما ركيزتا أي اصلاح اجتماعي.

ولقد توحدت السلطتان المعرفية والسياسية في شخص واحد، وفي نموذجين مختلفين كل الاختلاف، النموذج الأول: الملك المتأله (فرعون)، أما النموذج الثاني: الرسول الملك أو الرسول القائد للجماعة (سليمان، داود، محمد عليهم الصلاة والسلام). ويبقى الفرق بين الممارستين كالفرق بين الطاغية والرسول.

إن الحاكم يمارس سلطته بوسيلتين متباينتين:

الوسيلة الأولى: القمع لأن السلطة في جوهرها قمعية، ولكنها لاتستطيع بالقمع وحده أن تحتفظ بسيادتها وتحقق مشروعاتها وتحصل على مشروعيتها، التي هي شرط ضروري لاستمرارها في مجتمع متوازن.

أما الوسيلة الثانية: فهي المعرفة الدينية والدنيوية التي تحقق مشروعية وجودها. فالحاكم يدرك أنه لاسلطة سياسية له ولا مشروعية لحكمه، ولا إخضاع للمجتمع، بغير امتلاكه للسلطة المعرفية المتمثلة بالفقيه والمثقف، وقد كانت محنة (خلق القرآن) أنموذجاً لمحاولة جمع السلطتين الدينية والدنيوية في يد واحدة من قبل المأمون لأن غاية السياسي انضباط الرعية والتوحد في سلوكها ضمن حدود الممكن. مما يبعث على الاستقرار والاستمرار.

إن وجود الوظيفتين السياسية والدينية ضروري في كل المجتمعات، لأن

المجتمع بلا رئيس أو قائد لايستطيع الاستمرار، كذلك فإن غياب المفكر أو الفقيه الديني سوف يؤثر على إنسانية الإنسان في تعامله مع الحاكم. وطرفا العلاقة غايتهما الإنسان ومشكلات الإنسان.

يستطيع السياسي أن يمارس سلطته بالقوة والمال على الفقهاء في حال عدم انصياعهم لما يريد منهم، فيبدأ أولاً بالترغيب، فإذا فشل استعمل احتياطه المستعد دائماً ألا وهو القوة القمعية، فيمارس الاضطهاد والسجن والضرب، وكم من الفقهاء والمثقفين ماتوا في سجون السلطان.؟!

لكننا نتسائل لماذا كل هذا الخوف من الفقيه؟، فيحاول ارضاءه حيناً، والبطش به وإبعاده حيناً آخر.

يعود ذلك إلى أن الفقيه صاحب أقوال فيما يجب أن يكون، ومدى مطابقة الكائن لحدود الشريعة، فمجرد افتاء واحد يبين فيه عدم شرعية تصرف الحاكم، حتى يزلزل كيان السياسي، ويهدد استقراره، لذا يحرص السياسي على أن لايقطع الشعرة بينه وبين الفقيه.

لكن يستطيع السياسي أن يشتري بعض الدينين ويلبسهم الثوب الديني الرسمي لدولته. إلا أنه في قرارة نفسه لايحترم هؤلاء لأنهم مرتزقة ومنافقون. لايمكن الاعتماد عليهم لأن قربهم الزائد من السلطة السياسية جعل صورتهم مشوهة عند الجماهير فأطلقوا عليهم، فقهاء السلطان وعلماء السوء.

وهنا يظهر دور الفقيه الحق المخلص لدينه ولأمته من خلال مد الجسور بين الحاكم وشعبه وهذه الجسور ممثلة بالفقيه نفسه الذي ينقل هموم الشعب في القاعدة إلى الحاكم في القمة، مخترقاً حاشية الحاكم وبطانته لأن هذه الحاشية إذا كانت حاشية سوء تستطيع أن تعزل الحاكم عن شعبه وتزيد في علو الجدار الذي تقيمه بين الشعب وحاكمه، تشويها للحاكم، وكسب مزيد من الأطماع المادية.

لذا فإن الفقيه هو المؤهل لقول كلمة الحق، لأنه لاينتظر هدايا وأموال الحاكم،

ولايرغب في إثارة الفتن، بل ناصح مخلص من أجل المصلحة العامة للأمة. ويرجع الغزالي فساد الأمة لفساد العلماء.

ويقول الأصمعي: (إثنان إذا صلحا صلح الناس، الأمراء والفقهاء).

وحتى لاتغرق السفينة بمن فيها يجب الأخذ على أيدي من يحاول خرقها وقد كثرت محاولات الخرق هذه في الآونة الأخيرة تحت شعار مايسمى بالتطرف الديني، لذا حاولت قدر استطاعتي أن أتناول دراسة جانب من هذه المشكلة. وذلك بدراسة صيغة المعارضة السياسية في الاسلام للحاكم من خلال علاقة الفقهاء بالسلطان لأن هؤلاء الفقهاء هم مصدر معرفة لعوام الأمة وأئمة مذاهب في العبادات.

ومادام طرفي العلاقة الفقيه والسلطان يعملان لصالح الأمة كل بوسائله فلا بد من أن يكون الجسر بينهما قوياً، ومفتوحاً، لأنه لابد من تعاون الفقيه مع السلطان، ولابد من فتح باب الحوار من قبل السلطة القائمة مع معارضيها من أبناء الأمة.

فالخطر يأتي من سيادة جو الاستبداد، وليس من سيادة جو الحرية والحوار بين الجميع حكاماً ومحكومين.

تراجم الأعلام

١- احمد بن محمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) (٧٨٠-٨٥٥م):

أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، إمام المذهب الحنبلي، ولد ببغداد صنف (المسند)، يحتوي على ثلاثين ألف حديث، أصيب بمحنة خلق القرآن، فسجن في عهد المعتصم (٢٨ شهراً) لامتناعه عن القول – ثم أطلق سراحه بخلق القرآن. توفي سنة ٢٤١هـ.

٢- احمد بن ابي داود بن جرير بن مالك الإيادي: (١٦٠-٢٤٠هـ) (٧٧٧-٨٥٤م):

أحد القضاة المشهورين من المعتزلة، اتصل بالمأمون، فلما قرب موته أوصى به أخاه المعتصم، فجعله قاضي قضائه، وجعل يستشيره في أمور الدولة كلها، ولما مات المعتصم اعتمد الواثق على رأيه، ومات الواثق راضياً عنه، وتولى المتوكل، ففلج ابن أبي داود في أول خلافته سنة ٢٣٣هـ وتوفى مفلوجاً ببغداد.

٣- احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية: (٦٦١-٧٢٨هـ) (١٢٦٣-١٣٢٨م):

ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين له مؤلفات كثيرة منها: الفتاوي – والجمع بين العقل والنقل ومنهاج السنة... الخ. مات معتقلاً في قلعة دمشق.

٤- اروى بنت احمد بنت جعفر بن موسى الصليحي: (٤٤٤-٥٣٢هـ) (١٠٥٢-١١٣٨م):

تنعت بالحرة الكاملة، وبلقيس الصغرى، ملكة حازمة مديرة يمانية، تزوجها المكرم الصليحي، وفلج، ففوض إليها الأمور، فاتخذت لها حصناً بذي جبلة،

وقامت بتدبير المملكة والحروب، وكان يدعى لها على منابر اليمن، وتعد من زعماء الاسماعيليين توفيت بذي جبلة ودفنت في جامعها.

٥- ايوب بن شرحبيل بن ابرهة الأصبحي: (٠٠-١٠١هـ) (٠٠-٧٢٠م):

أمير من النبلاء الصلحاء ولي مصر لعمر بن عبد العزيز أول سنة (٩٩هـ) وحسنت أحوالها في أيامه، واستمر إلى أن توفى فيها. فكانت مدة امارته سنتان ونصف سنة.

٦- بلال بن رباح الحبشي: (٠٠-٢٠هـ) (٠٠-٦٤١م):

مؤذن رسول الله ﷺ، وخازنه على بيت ماله، وأحد السابقين للاسلام، توفي في دمشق روى له البخاري ومسلم ٤٤ حديثاً.

٧- جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين (٨٠-١٤٨هـ) (٦٩٩-٧٦٥م):

سادس الأئمة الاثنى عشر عند الامامية، كان من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم أخذ عنه جماعة، منهم أبو حنيفة، ومالك.

٨- جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد (٠٠-٦٢٥م) (٠٠-٣٢هـ):

من بني غفار، يكنى بأبي ذر الغفاري. صحابي جليل يقال أسلم بعد أربعة، يضرب به المثل في الدق، وهو أول من حيى رسول الله ﷺ بتحية الاسلام، هاجر بعد وفاة رسول الله، إلى بادية الشام، فأقام إلى أن توفى أبو بكر وعمر، وولي عثمان فسكن دمشق، وجعل ديدنه تحريض الفقراء على مشاركة الأغنياء في أموالهم، فاضطرب هؤلاء، فشكاه معاوية إلى عثمان، فاستقدمه عثمان إلى المدينة ثم أمره بالرحلة إلى الربذة، فسكنها إلى أن مات، روى له البخاري ومسلم ٢٨١ حديثاً.

٩- جعفر بن محمد بن هارون الرشيد، المتوكل بالله (٢٠٦-٢٤٧هـ) (٨٢١-٨٦١م):

خليفة عباسي، ولد ببغداد وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة (٢٣٢هـ) وكان جواداً ممدحاً محباً للعمران، ولما استخلف كتب إلى أهل بغداد كتاباً قرئ على المنبر بترك الجدل في القرآن.

١٠- حذيفة بن جابر العبسي (٠٠-٣٦هـ) (٠٠-٦٥٦م):

والنعمان لقبه: صحابي من الولاة الشجعان الفاتحين كان صاحب سر رسول الله في المنافقين، ولاه عمر على المدائن بفارس، وقد فتح عدة بلدان، توفي في المدائن. روى له البخاري ومسلم ٢٢٥ حديثاً.

١١- الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي (٤٠-٩٥هـ) (٦٦٠-٧١٤م):

قائد، داهية، سفاك، خطيب، ولد ونشأ في الطائف، وانتقل إلى دمشق، والتحق بالشرط، ومازال يظهر أمره حتى جعله عبد الملك بن مروان على المعسكر وأمره بقتال ابن الزبير فزحف إلى الحجاز فقتل عبد الله ﷺ، فولاه الحجاز ثم أضاف إليه العراق، وكان سفاحاً باتفاق المؤرخين، وإن كانت له حسنات لكنها مغمورة.

١٢- الحسن بن يسار البصري (٢١-١١٠هـ) (٦٤٢-٧٢٨م):

تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه ولد بالمدينة، وشب في كنف علي بن أبي طالب، وسكن البصرة، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه أن يصف له الامام العادل ففعل، توفي بالبصرة.

١٣- خباب بن الارث بن جندلة بن سعد التميمي (٠٠-٣٧هـ) (٠٠-٦٥٧م):

صحابي من السابقين، وهو أول من أظهر إسلامه، كان قبل إسلامه، قيناً

يعمل السيوف ولما أسلم استضعفه المشركون فعذبوه ليرجع عن دينه، فصبر، إلى أن كانت الهجرة، ثم شهد المشاهد كلها، ونزل الكوفة، فمات فيها وهو ابن ٧٣ سنة.

١٤- سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة الخزرجي (٠٠-١٤هـ) (٠٠-٦٣٥م):

صحابي، من أهل المدينة، كان سيد الخزرج، وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والاسلام، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد أحداً والخندق وغيرهما. ولما توفى رسول الله ﷺ طمع بالخلافة، ولم يبايع أبا بكر، فلما صار الأمر إلى عمر بن الخطاب عاتبه، فقال: كان والله صاحبك (أبو بكر) أحب إلينا منك، وقد والله أصبحت كارهاً لجوارك، فقال عمر: من كره جوار جاره تحول عنه، فلم يلبث سعد أن خرج إلى الشام مهاجراً، فمات بحوران.

١٥- سعد بن مالك بن سنان (١٠ق.هـ-٧٤هـ) (٦١٣-٦٩٣م):

كنيته أبو سعيد الخدري وبها عرف: صحابي، من الذين أكثروا في رواية الحديث، شهد غزوة الخندق ومابعدها، روى ١١٧٠ حديثاً توفى سنة ٧٤هـ.

١٦- سعد بن أبي وقاص مالك بن زهرة (٢٣ق.هـ-٥٥هـ) (٦٠٣-٦٧٥م):

أحد العشرة المبشرين بالجنة، وآخرهم موتاً وهو أول من رمى سهماً في سبيل الله، كان مجاب الدعوة، فتح العراق، واختط الكوفة، وعاد إلى المدينة وتوفي سنة ٥٥هـ، وله ٢٧١ حديثاً.

١٧- سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (٩٧-١٦١هـ) (٧١٦-٧٧٨م):

أمير المؤمنين في الحديث، ولد ونشأ في الكوفة وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم، فأبى، وخرج من الكوفة سنة ١٤٤هـ، فسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي، فتوارى، وانتقل إلى البصرة، فمات فيها مستخفياً. له من الكتب (الجامع الكبير والجامع الصغير) كلاهما في الحديث وكتاب في الفرائض.

١٨- سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي القرشي (١٣-٩٤هـ) (٦٣٤-٧١٣م):

من أعلام التابعين وساداتهم، أحد الفقهاء السبعة في المدينة، كان زاهداً ورعاً، يعيش من التجارة بالزيت، لايأخذ عطاءاً، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، توفي بالمدينة سنة (٩٤هـ).

١٩- سليمان بن عبد الملك بن مروان (٥٤-٩٩هـ) (٦٧٤-٧١٧م):

الخليفة الأموي، ولد في دمشق، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة (٩٦هـ) وكان بالرملة، فلم يتخلف عن مبايعته أحد، كان عاقلاً فصيحاً، طموحاً إلى الفتح، في عهده فتحت جرجان وطبرستان، وتوفي في دابق (من أرض قنسرين بين حلب ومعرة النعمان) ومدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أياماً.

٢٠- الزبير بن العوام بن خويلد القرشي (٢٨ق.هـ - ٣٦هـ) (٥٩٦-٦٥٦م):

صحابي شجاع، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأول من سل سيفه في الاسلام، شهد بدراً ومابعدها، قتل غيله يوم الجمل عام ٣٦هـ وله ٣٨ حديثاً.

٢١- زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٧٩-١٢٢هـ) (٦٩٨-٧٤٠م):

الامام، كانت إقامته بالكوفة، وقرأ على واصل بن عطاء (رأس المعتزلة) واقتبس منه علم الاعتزال، أشخص إلى الشام، فضيق عليه هشام بن عبد الملك، وعاد إلى العراق ثم إلى المدينة، فلحق به بعض أهل الكوفة يحرضونه على قتال الأمويين، ورجعوا به إلى الكوفة سنة (١٢٠هـ) فبايعه أربعون ألفاً على الدعوة إلى الكتاب والسنة وجهاد الظالمين.. ونشبت معارك مع الدولة القائمة انتهت بمقتل زيد.

٢٢- طلحة بن عبد الله بن عثمان القرشي (٢٨ق.هـ-٣٦هـ) (٥٩٦-٦٥٦م):

صحابي من الكرماء الأجواد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد أحداً، وسائر المشاهد بعدها، قتل يوم الجمل وهو بجانب عائشة أم المؤمنين ودفن بالبصرة عام ٣٦هـ.

٢٣- عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) (١٣٣٢-١٤٠٦م):

الفيلسوف المؤرخ - العالم الاجتماعي، ولد في تونس رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، اشتهر بكتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر) في سبعة مجلدات اشتهر منها المقدمة وهي تعد من أصول علم الاجتماع، توفي في القاهرة.

٢٤- عائشة بنت ابي بكر الصديق (ام المؤمنين) (٩ق.هـ-٥٨هـ) (٦١٣-٦٧٨م):

أفقه نساء المسلمين، وأعلمهن تكنى بأم عبد الله، تزوجها النبي ﷺ، في السنة الثانية للهجرة، وكانت أحب نسائه إليه، كانت مرجعاً للفتيا توفيت بالمدينة سنة (٥٨هـ)، ولها ٢٢١٠ حديثاً.

٢٥- عبادة بن الصامت بن قيس الانصاري الخزرجي (٣٨ق.هـ-٣٤هـ) (٥٨٦-٦٥٤م):

صحابي، شهد العقبة، وكان أحد النقباء، وشهد بدراً وسائر المشاهد، ثم حضر فتح مصر، وهو أول من ولى القضاء بفلسطين ومات بالرملة، أو بيت المقدس، روى (١٨١) حديثاً اتفق البخاري ومسلم على ستة منها.

٢٦- عبد العزيز بن عبد السلام (٥٧٧-٦٦٠هـ) (١١٨١-١٢٦٢م):

الملقب بسلطان العلماء، فقيه شافعي، ولد ونشأ في دمشق، زار بغداد، وعاد إلى دمشق، فتولى الخطابة في الجامع الأموي، كان قوياً في الحق وله مواقف مع السلاطين مؤثرة، ولي للسلطان صلاح الدين بن يوسف القضاء والخطابة في مصر ثم اعتزل ولزم بيته له مؤلفات مشهورة منها قواعد الأحكام، توفي سنة ٦٦٠هـ.

٢٧- عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (٠٠-٣٢هـ) (٠٠-٦٥٣م):

صحابي من أكابرهم فضلاً وعقلاً، وقرباً من رسول الله ﷺ وهو من أهل مكة، ومن السابقين إلى الاسلام، وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة، وكان خادم

رسول الله، وصاحب سره، وولي بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بيت مال الكوفة، ثم قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً، له في الصحيحين ٨٤٨ حديثاً.

٢٨- عبد الله بن عمر الخطاب (١٠ق.هـ-٧٣هـ) (٦١٣-٦٩٢م):

صحابي، نشأ في الاسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه وشهد فتح مكة، ومولده ووفاته فيها، أفتى الناس في الاسلام ستين سنة، وغزا افريقية مرتين، وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة له في الصحيحين ٢٦٣٠ حديثاً.

٢٩- عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي (٧ق.هـ-٦٥هـ) (٦١٦-٦٨٤م):

صحابي من النساك من أهل مكة، كان يكتب في الجاهلية، أسلم قبل أبيه، أستأذن من النبي في كتابة مايسمع من النبي عليه الصلاة والسلام فأذن له، كثير العبادة، عمي في آخر حياته، له ٧٠٠ حديثاً.

٣٠- عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب (ابو العباس السفاح) (١٠٤-١٣٦هـ) (٧٢٢-٧٥٤م):

أول خلفاء الدولة العباسية، وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب. بويع له بالخلافة جهراً سنة (١٣٢هـ) ولقب بالسفاح لكثرة ماسفح من دماء بني أمية، وهو أول من أحدث الوزارة في الاسلام.

٣١- عبد الله بن محمد بن علي بن العباس (ابو جعفر المنصور) (١٠١- ١٥٨هـ):

ثاني خلفاء بني العباس، أول من عني بالعلوم من ملوك العرب، كان عارفاً بالفقه والأدب مقدماً في الفلسفة والفلك، محباً للعلماء، وولى الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة (١٣٦هـ) باني مدينة بغداد، ومن أثاره (الرافقة) بالرقة، وزيادة في المسجد الحرام، كان بعيداً عن اللهو والعبث، كثير الجد والتفكير، دامت خلافته ٢٢ عاماً.

٣٢- عبد الرحمن بن صخر الدوسي (أبو هريرة) (٢١ق.هـ-٥٦هـ) (٦٠٢-٦٧٩م):

صحابي، كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له. أسلم سنة ٧هـ ولزم صحبة النبي، فروى عنه ٥٣٧٤ حديثاً، وولي إمرة المدينة مدة، ولما صارت الخلافة إلى عمر استعمله على البحرين، توفي في المدينة.

٣٣- عبد الله بن هارون الرشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور (المأمون) (١٧٠-٢١٨هـ) (٧٨٦-٨٣٣م):

سابع الخلفاء من بني العباس، وأحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه. نفذ أمره من إفريقية إلى أقصى خراسان وماوراء النهر والسند، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة (١٩٨هـ) فتمم مابدأه جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة، وحض الناس على قراءتها، وأقام دار الحكمة، وقرب العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين، وأطلق حرية الكلام للباحثين، وأهل الجدل والفلاسفة، لولا محنة خلق القرآن، التي أثارها في السنة الأخيرة من حياته.

٣٤- عبد الله بن أبي قحافة (أبو بكر الصديق) (٥١ق.هـ-١٣هـ) (٥٧٣-٦٣٤م):

أول الخلفاء الراشدين، وأول من آمن بالرسول عليه الصلاة والسلام من الرجال، ولد بمكة، ونشأ سيداً من سادات قريش، وكانت العرب تلقبه بعالم قريش، شهد الحروب، واحتمل الشدائد، وبذل الأموال وبويع بالخلافة يوم وفاة النبي سنة (١١هـ) فحارب المرتدين، وافتتحت في أيامه بلاد الشام وقسم كبير من العراق، مدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر ونصف الشهر. له في الصحيحين ١٤٣ حديثاً.

٣٥- عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية القرشي (٤٧ق.هـ-٣٥هـ) (٥٧٧-٦٥٦م):

ثالث الخلفاء الراشدين فتحت في أيامه أرمينية والقوقاز وقبرص، وجمع الناس على مصحف واحد، قتل ﷺ بعد أن حوصر أربعين يوماً، وهو يقرأ القرآن.

٣٦- عمار بن ياسر بن عامر الكناني (٥٧ق.هـ-٣٧هـ) (٥٦٧-٦٥٧م):

صحابي من الولاة الشجعان ذوي الرأي، وهو أحد السابقين إلى الاسلام والجهر به. هاجر إلى المدينة، وشهد بدراً، وأحداً، والخندق، وبيعة الرضوان كان النبي ﷺ يلقبه (الطيب المطيب) وهو أول من بنى مسجداً في الاسلام (بناه في المدينة وسماه قباء) وولاه عمر الكوفة وشهد الجمل وصفين، وقتل في صفين من جيش معاوية بن أبي سفيان. وعمره ثلاث وتسعون سنة له ٦٢ حديثاً.

٣٧- عمر بن الخطاب (٤٠ق.هـ-٢٣هـ) (٥٨٤-٦٤٤م):

ثاني الخلفاء الراشدين، الامام العادل، شجاع، حازم يضرب به المثل في العدل، شهد الوقائع وهو أول من وضع التاريخ الهجري، واتخذ بيت المال، ودون الدواوين، حدثت في عهده فتوحات كثيرة ففتح الشام والعراق والمدائن ومصر والجزيرة، قتله أبو لؤلؤة المجوسي عام ٢٣هـ.

٣٨- عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم (٦١-١٠١هـ) (٦٨١-٧٢٠م):

الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين، تشبيهاً له بهم، ولد ونشأ بالمدينة، وولى امارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام، وولى الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩هـ.

٣٩- علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي (٢٣ق.هـ - ٤٠هـ) (٦٠٠-٦٦١م):

أبو الحسن أمير المومنين رابع الخلفاء الراشدين، من أكابر الخطباء ومن العلماء بالقضاء، وأول من أسلم من الشباب، ولد بمكة وتربى في حجر النبي ﷺ، هاجر إلى المدينة، تزوج فاطمة الزهراء بنت محمد ﷺ، قتل بالكوفة عام ٤٠هـ.

٤٠- علي بن محمد بن حبيب (ابو الحسن الماوردي) (٣٦٤-٤٥٠هـ) (٩٧٤-١٠٥٨م):

من أقضى القضاة في عصره ومن العلماء أصحاب التصانيف النافعة، له

الأحكام السلطانية. ولد في البصرة عام ٣٦٤هـ وانتقل إلى بغداد وتوفي فيها عام ٤٥٠هـ.

٤١- عوف بن مالك الاشجعي (٠٠-٧٣هـ) (٠٠-٦٩٢م):

صحابي من الشجعان الرؤساء أول مشاهده خيبر، نزل حمص وسكن دمشق له ٦٧ حديثاً.

٤٢- فاطمة الزهراء بنت رسول الله محمد ﷺ (١٨ق.هـ-١١هـ) (٦٠٥-٦٣٢م):

الهاشمية القرشية، وأمها خديجة بنت خويلد من نابهات قريش، إحدى الفصيحات العاقلات، تزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طال ﷺ، وولد له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب وعاشت بعد والدها رسول الله ستة أشهر ولها ١٨ حديثاً.

٤٣- مالك بن انس بن مالك الاصبحي (٩٣-١٧٩هـ) (٧١٢-٧٩٥م):

امام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، مولده ووفاته في المدينة، كان صلباً في دينه، وأصابته محنة من قبل والي المدينة، صنف (الموطأ) وله رسالة في (الوعظ).

٤٤- معاوية بن ابي سفيان بن صخر بن حرب بن امية (٢٠ق.هـ-٦٠هـ) (٦١٣-٦٨٠م):

مؤسس الدولة الأموية في الشام وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار، كان فصيحاً حليماً وقوراً، ولد بمكة وأسلم يوم فتحها (سنة ٨هـ)، جعله رسول الله ﷺ في كتابه، نشبت حروب بينه وبين علي بن أبي طالب لخروجه وبغيه على الامام علي كرم الله وجهه، ثم قتل علي وبويع بعده لابنه الحسن، فسلك الخلافة إلى معاوية سنة ٤١ هـ ودامت لمعاوية إلى أن بلغ الشيخوخة فعهد بها إلى ابنه يزيد البيعة هذه لا سابقة لها في تاريخ المسلمين. ومات في دمشق. له ١٣٠ حديثاً، اتفق

البخاري ومسلم على أربعة منها وانفرد البخاري بأربعة، ومسلم بخمسة.

٤٥- محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور (المعتصم بالله) (١٧٩-٢٢٧هـ) (٧٩٥-٨٤١م):

خليفة عباسي، بويع بالخلافة سنة ٢١٨هـ يوم وفاة أخيه المأمون وبعهد منه، كره التعليم في صغره، فنشأ ضعيف القراءة يكاد يكون أمياً وهو فاتح عمورية، وهو أول من أضاف إلى اسمه اسم الله تعالى من الخلفاء. خلافته ٨ سنين و٨ أشهر.

٤٦- محمد بن ادريس الشافعي - الهاشمي (١٥٠-٢٠٤هـ) (٧٦٧-٨٢٠م):

أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد في غزة بفلسطين، وحمل منها إلى مكة، وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين وقصد مصر سنة ١٩٩ فتوفي فيها، له كتاب (الأم) و (المسند في الحديث) و(أحكام القرآن) و(الرسالة) في أصول الفقه.

٤٧- محمد بن محمد طرخان بن اوزلغ المعروف بأبي النصر الفارابي (٢٦٠-٣٣٩هـ) (٨٧٤-٩٥٠م):

ويعرف بالمعلم الثاني أكبر فلاسفة المسلمين، ولد في فاراب وانتقل إلى بغداد، فنشأ فيها، وألف أكثر كتبه، ورحل في مصر والشام واتصل بسيف الدولة بن حمدان، وتوفي في دمشق، له نحو مئة كتاب، منها (الفصوص - آراء أهل المدينة الفاضلة، جوامع السياسة).

٤٨- محمد بن محمد ابو حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ) (١٠٥٨-١١١١م):

حجة الإسلام، فيلسوف متصوف، له نحو مئتي مصنف، رحل إلى نيسابور، ثم إلى بغداد، فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته الطابران وهي من قرى طوس، ونسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غزالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف. من كتبه (احياء علوم الدين - تهافت الفلاسفة -

الاقتصاد في الاعتقاد – مقاصد الفلاسفة – المضنون به على غير أهله – المنقذ من الضلال – فضائح الباطنية).

٤٩- محمد بن يعقوب بن محمد مجد الدين الشيرازي الفيروز آبادي (٧٢٩-٨١٧هـ) (١٣٢٩-١٤١٥م):

من أئمة اللغة والأدب ولد بشيراز ورحل في الأقطار، وولي قضاء زبيد، وكان مرجع أهل عصره في العلوم وأشهر كتبه، (القاموس المحيط) توفي عام ٨١٧هـ.

٥٠- هارون الرشيد أبو جعفر ابن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي (٧٦٦-٨٠٩م) (١٤٩-١٩٣هـ):

خامس خلفاء الدولة العباسية وأشهرهم، ولد بالري، ونشأ في دار الخلافة ببغداد بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة (١٧٠هـ) وازدهرت الدولة في أيامه، كان عالماً بالأدب وأخبار العرب، والحديث والفقه، شجاعاً كثير الغزوات، حازماً كريماً متواضعاً مدة حكمه ٢٣ سنة وشهران وأيام.

٥١- هارون ابن محمد (المعتصم) ابن هارون الرشيد (الواثق بالله) (٢٠٠-٢٣٢هـ) (٨١٥-٨٤٧م):

ولد ببغداد وولي الخلافة بعد وفاة أبيه (سنة ٢٢٧هـ) فامتحن الناس في خلق القرآن وسجن جماعة، وقتل في ذلك أحمد بن نصر الخزاعي بيده سنة (٢٣١هـ) ولايته خمس سنين وتسعة أيام، كان كريماً عارفاً بالآداب والأنساب، طروباً يميل إلى السماع، عالماً بالموسيقى.

٥٢- النعمان بن ثابت (أبو حنيفة) (٨٠-١٥٠هـ) (٦٩٩-٧٦٧م):

التيمي بالولاء إمام مجتهد، أحد الأئمة الأربعة، ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ وبها نشأ وطلب العلم، وأريد القضاء فامتنع، قال الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. توفي ببغداد سنة ١٥٠هـ.

٥٣- ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد العزى مـن قريـش (٠٠- نحـو ١٢ق.هـ) (٠٠- نحـو ٦١١م):

حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الاسلام، وتنصر وقرأ كتـب الأديـان، أدرك أوائل عصر النبوة وهو ابن عم خديجة زوج النبي (أم المؤمنين).

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

السورة	ترتيبها	الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
البقرة	٢	ألم تر الى الذي حاج إبراهيم..................	٢٥٨	١٢،١٦،١١٠
آل عمران	٣	كنتم خير أمة أخرجت للناس..............	١١٠	٤٦
آل عمران	٣	فبما رحمة من الله لنت لهم................	١٥٩	٣٧
آل عمران	٣	ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير............	١٠٤	٤١
النساء	٤	رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون...........	١٦٥	١٣
النساء	٤	إن الله لايغفر أن يشرك به................	١١٦	١٢
النساء	٤	ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا...............	٧٧	٣٣
النساء	٤	ياأيها الذين أمنوا أطيعوا الله...............	٥٩	٣٩
النساء	٤	إن الله يأمركم أن تودوا الأمانات............	٥٨	٤٢
المائدة	٥	ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة................	٢١	٧
المائدة	٥	قالوا ياموسى إن فيها قوماً..................	٢٢	٧
المائدة	٥	... فإن توليتم فاعلموا إنما..................	٩٢	١٤
المائدة	٥	... ولايجر منكم شنآن قوم على.............	٨	٤٣، ٧٥
الأنعام	٦	وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم...............	٨٣	١٦
الأنعام	٦	وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر..................	٧٤	١٦
الأنعام	٦	وكذلك نري إبراهيم ملكوت.................	٧٥	١٦
الأنعام	٦	فلما جن عليه الليل رأى....................	٧٦	١٦
الأنعام	٦	فلما رأى القمر بازغاً قال..................	٧٧	١٦
الأنعام	٦	فلما رأى الشمش بازغة قال................	٧٨	١٦
الأنعام	٦	إني وجهت وجهي للذي....................	٧٩	١٦
الأنعام	٦	ولقد كذبت رسل من قبلك..................	٣٤	١٨، ٣٠
الأعراف	٧	قال الملأ من قوم فرعون....................	١٢٧	١١

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس أقوال الفقهاء والمفكرين

فهرس الاعلام

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- العهد الجديد. (جمعيات الكتاب المقدس المتحدة، [د.ت]).
- انجيل برنابا. ترجمة خليل سعادة (دمشق: دار الحكمة، ١٩٥٨).
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم (بيروت: دار الفكر، [د.ت]).
- ابن كثير: البداية والنهاية. تحقيق أحمد أبو ملحم ورفاقه، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥).
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد. العقد الفريد، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٦)
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. المقدمة (بيروت: دار القلم العربي، ١٩٧٨)
- ابن سعد، محمد. الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر ١٩٨٥).
- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم. الحسبة في الاسلام (بيروت: دار الكاتب العربي، د.ت).
- ابن تيمية: السياسة الشرعية. (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)
- ابن تيمية: القواعد النورانية الفقهية، تحقيق محمد حامد الفقهي، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥١).
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد. الكامل في التاريخ، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨).
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي. مناقب الامام أحمد بن حنبل، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٣).
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري. عيون الأخبار، (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٣).

- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك. السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرؤوف سعيد، (بيروت: دار الجيل [د.ت]).
- ابن طباطبا، محمد بن علي. المعروف بابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٤٥).
- ابن عبد الحكم. سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أحمد عبيد، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٧).
- ابن الكردري، حافظ الدين بن محمد. مناقب أبي حنيفة، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨١).
- ابن ماجه، محمد بن يزيد. سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٩٧٥).
- أبو داود، سليمان بن الأشعث. سنن أبي داود، تحقيق عزت الدعاس، (حمص: دار الحديث، ١٩٦٩).
- أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد. حلية الأولياء، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٠).
- أبو بكر الهيثمي، علي. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (بيروت: دار المعارف، ١٩٨٦).
- أبو زهرة، محمد. تاريخ المذاهب الاسلامية في السياسة والعقائد، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٩).
- أبو زهرة، محمد: الامام زيد، حياته وعصره - آراؤه وفقهه، (القاهرة: دار الفكر العربي، [د.ت]).
- أبو زهرة، محمد: الامام الصادق، حياته وعصره - آراؤه وفقهه، (القاهرة: دار الفكر العربي، [د.ت]).
- أبو زهرة، محمد: الامام أبو حنيفة، حياته وعصره - آراؤه وفقهه، (القاهرة: دار الفكر العربي، [د.ت]).
- أبو زهرة، محمد: الامام مالك، حياته وعصره - آراؤه وفقهه، (القاهرة: دار الفكر العربي، [د.ت]).

- أبو زهرة، محمد: الامـام الشـافعي، حياتـه وعصـره - آراؤه وفقهـه، (القـاهرة: دار الفكـر العربي، [د.ت]).
- أبو زهرة، محمد: الامام أحمـد بـن حنبـل، حياتـه وعصـره - آراؤه وفقهـه، (القـاهرة: دار الفكر العربي، [د.ت]).
- أمين، أحمد. ضحى الاسلام، (بيروت: دار الكتاب العربي، [د.ت]).
- أفلاطون: الجمهورية، ترجمة حنا خباز، (بيروت، دار الكاتب العربي، [د.ت]).
- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر. أصول الدين، (استانبول: مطبعة الدولة، ١٩٢٨).
- البغدادي: الفرق بين الفرق. (بيروت: دار الجيل ودار الآفاق الجديدة، ١٩٨٧).
- الباقلاني، محمد بن الطيب بن محمـد: التمهيـد في الـرد علـى الملاحـدة والمعطلـة والرافضـة والخوارج والمعتزلة، (القاهرة: [د.ن]، ١٩٤٧.
- البدري، عبد العزيز. الاسلام بين العلماء والحكام، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية [د.ت]).
- البوطي، محمد سعيد رمضان. هكذا فلندع الى الاسـلام. أبحـاث في القمـة (٩)، (دمشـق: مكتبة الفارابي، [د.ت]).
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى. سنن الترمذي، تحقيـق عبـد الوهـاب عبـد اللطيـف، (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٩٦٤).
- جدعـان، فهمـي. المحنة بحث في جدليـة الدينـي والسياسـي في الاسـلام، (عمـان: دار الشروق، ١٩٨٩).
- الجابري، محمد عابد. العقل السياسي العربي - محدداته وتجلياته، (بيروت: مركز دراسـات الوحدة العربية ١٩٩٠).
- خليل، عماد الدين. ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبـد العزيـز، (بـيروت: موسسة الرسالة [د.ت]).
- حسن، إبراهيم حسن. تاريخ الاسلام السياسي والثقافي والديني والاجتماعي (بيروت: دار احياء التراث العربي ١٩٦٤).
- الخولي، أمين. مالك تجارب حياة، سلسلة أعلام العرب، (١١)، (وزارة الثقافـة والارشـاد القومي المصرية [د.ت]).
- الزركلي، خير الدين. الاعلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠).

- زيعور، علي. قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، المستعلي والأكبري في التراث والتحليل النفسي، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٢).
- الزحيلي، وهبة. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (بيروت: دار الفكر المعاصر، دمشق: دار الفكر، ١٩٩١).
- الزحيلي، وهبة: الفقه الاسلامي وأدلته، (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٥).
- شبلي، أحمد. السياسة في الفكر الاسلامي، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣).
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم. الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، (بيروت: دار صعب، ١٩٨٦).
- الشكعة، مصطفى. الامام أحمد بن حنبل، (بيروت: دار الكتاب اللبناني والمكتبة المدرسية، ١٩٨٣).
- الشكعة، مصطفى. الامام مالك بن أنس، (بيروت: دار الكتاب اللبناني والمكتبة المدرسية، ١٩٨٣).
- الطبري، أبو جعفر بن محمد بن جرير. تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار المعارف ١٩٦٦).
- طبارة، عفيف عبد الفتاح. مع الأنبياء في القرآن، (بيروت: دار العلم للملايين [د.ت]).
- عبد الباقي، محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (بيروت: دار احياء التراث العربي. [د.ت]).
- عطوان، حسين. الفرق الاسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي، (بيروت: دار الجيل ١٩٨٦).
- عمارة، محمد. المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٨).
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. فضائح الباطنية، (الكويت: دار الكتب الثقافية [د.ت]).
- الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، (بيروت: دار الأمانة، ١٩٦٩).
- الغزالي: احياء علوم الدين، (بيروت، دار المعرفة [د.ت]).

- الغزالي: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، مترجم عن الفارسية، راجعه سامي خضر، (بيروت: دار ابن زيدون، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٧).
- فيلسيان شالي. موجز تاريخ الأديان، ترجمة حافظ الجمالي، (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٠).
- الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد. آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق البير نادر. (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٩).
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط (بيروت: دار الجيل، والمؤسسة العربية للطباعة والنشر، [د.ت]).
- فرويد، سيغموند. الطوطم والتابو، ترجمة بو علي ياسين، (اللاذقية: دار الحوار، ١٩٨٣).
- القاسمي، ظافر. نظام الحكم في الشريعة والتاريخ. (بيروت: دار النفائس، ١٩٧٤).
- المكي، الموفق بن أحمد. مناقب أبي حنيفة، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨١).
- الميداني، عبد الرحمن حبنكة. الأخلاق الاسلامية. (بيروت: دار القلم [د.ت]).
- الماوردي، أبو الحسن علي بن حبيب. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، (القاهرة: المكتبة التوفيقية، [د.ت]).
- المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين. مروج الذهب ومعادن الجوهر، (طهران: مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان، ١٩٧٠).
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج. الجامع الصحيح (بيروت: دار المعرفة [د.ت]).
- النسائي، أحمد بن شعيب بن دينار. سنن النسائي، (دار احياء التراث العربي، [د.ت]).

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع